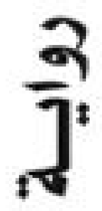


جمال ضاهر

العدم







جمال ضاهر

العدم







العدم

(رواية)

جمال ضاهر

دار الفارابي
الكتاب: العدم
المؤلف: جمال ضاهر
الغلاف: فارس غصوب
الناشر: دار الفارابي ـ بيروت ـ لبنان
ت: 301461(01) ـ فاكس: 307775(01)
ص.ب: 11/3181 ـ الرمز البريدي: 2130 1107
www.dar-alfarabi.com
e-mail: info@dar-alfarabi.com
الطبعة الأولى: أيار 2013
ISBN: 978-9953-71-934-4

إهــداء

إلى جدي ظاهر العمر

كان الكون صغيراً

كان يَحبو على أربع، ويدور كأنّه تفّاحة خضراء

وحياة تسير كما لونها وأزرق يمتدّ سماء

والزرقة بحار

وحيتان تقذف داخلها

ويونس

الجزء الأول

1

«إن العدم، عندما يأتيكَ، يأخذ لونكَ يُخليكَ منكَ

ينهش داخلكَ

يمضغكَ يأكلكَ

يُحوّلكَ لا شيء، يبتلع ماضيكَ وحاضركَ.

يُحدّد سير الزمن القادم من غيبكَ»، قال الصالح يُحدّث أتباعه ينظر... ولا يرى أمامه.

خطّ الأفق كان يمتدّ ضباباً، والريح مُنخفضة تُنقّل غُباراً ورائحة جيفة، ضباع تأكل منها وصقور تحلّق في السماء فوقها.

«والعدم»، أكمل الصالح يستحضر ما قيل له في منامه، «ليس رغماً عنكَ يأتيكَ».

أغمض عينيه، أخفض رأسه، أماله بعض الشيء نحو اليمين يُحاول أن يَسمع صدى صمته، وأشار لمن حوله أن يُغادروا المكان.

«أراني لست هنا»، قال وقد بدأ أتباعه ينفضون ثيابهم المُبلّلة بعرقهم، يُزيلون عنها رائحة أجسادهم وما التصق بها من تُراب وأوراق نباتات جفّت منذ سنين، وكما أشجار تتمايل أغصانها بفعل الريح ساروا يبتعدون عن الصالح يسبّحون الخالق، يتجمّعون حول بئر مُمتلئة بالماء حتى حافّتها رغم انحباس الأمطار حولين كاملين وأشهراً كثيرة.

في الظل جلسوا يُردّدون أسماء الله همساً ويستغفرون ذنوباً لم ترتكبها نفوسهم بعد.

كان الصالح في العادة يجلس بين أتباعه أيّاماً تلو الأيّام، يصل النهار مع النهار يقصّ قصص الأقدمين يؤوِّل الرؤى وما أتاه من أحاديث، يكشف عن خطى الأولياء من قبله وعن مواضع أقدامهم في الطريق... حتى يبلغ الصمت حدّ كسره، ويسمع دبيب نمل لا غاية من سيره، فيغادر مكانه. غير أنّه اليوم لم يمض على وجوده بينهم بعض يوم، ولم يَسمع صوت الصمت يتكسّر ولا ضجيج النمل يسير.

«أخشى أن تكون الكلمات منّي»، قال يُحدّث نفسه، «أخشى أن أكون من صاغها ومن سكبها، وقد أكون من أوجد الصور وحدّدها...

وقد لا تكون منّي وليس من العليّ المعين.

كيف اليقين أنّها ليست من الرجيم؟

نظر إلى السماء يناجيها يطلب رحمتها ولطفها. أكملت الغيوم سيرها. والصقور بدأت تهبط تُحيط بالجيفة تنتف بقاياها.

عابساً قام الصالح يترك المكان، شارد الذهن يمشي لا يرى أين تقع قدماه، مطأطئاً رأسه لا يعي ما يدور حوله. ورائحة مطر لم يهطل بعد.

2

«القول الآتي من الواحد الأحد

لا شيء يُحوّله...

لا شيء يجعله غيره»، وجد نفسه يقول لعلّها هواجسه تُغادر قلبه.

3

«والتيه، عندما يأتيكَ، يُرافقكَ يَتتبّع آثاركَ. يأخذها منكَ يجمعها. يُزيل رائحتكَ منها. يُطعّمها بغيرها ولا يعود شيئاً منكَ فيها.

ينثرها.

في أربع جهات الكون وما بينها يُبعثرها.

وينقضّ عليكَ يُحاصركَ.

يُقفل الأبواب عليكَ في الظُلمة، حيث لا ترى نفسكَ إلا غيركَ.

إمّا البقاء حيث لا ضوء وإمّا الرحيل عن نَفسكَ، يكون أمامكَ.

تُحاول الخروج، تُحاول تُحاول.

تخرج. ليس إليكَ...

إلى طريق أخذت آثارها رائحة من غيركَ.

تعود تُحاول ثانية. تَخرج. تعود.

تخرج. تخرج. تُحاول تعود.

تُعيد الكرّة ثلاث مرّات مُتتاليات.

تُحاول تسير نحو الضوء لعلّكَ تجد الطريق إليكَ.

لا سير تجدُ لا مسار. لا طريق لا زقاق.

ليس إليكَ ليس إلى غيركَ.

لا شيء حولك سوى مزيج رائحة تأخذكَ إلى ظلال تائهة.

تبحث بينها عن ظلّكَ، لعلّه يأخذكَ يُخرجكَ.

لا شيء تجد منكَ. ولا ظلّكَ.

تقضي حياتك بين الظلال.

مثلها».

استيقظ يرتعد يرتجف، جسده ينتفض والذعر يمسك بعينيه كأنّما روحه تحترق أمامه، جلس في سريره يمسك برجليه يضمّهما إلى صدره، يشدّهما حدّ الألم قدر استطاعته... حتى كاد يكسر عظامه. ارتخت أعضاؤه وأصابعه بدأت ترتعش، أسند رأسه وأغمض عينيه يستحضر منامه، يُردّده يقوله، يُحاول يُعيد ترتيبه كما جاءه، يَجمع تفاصيله. موضع فواصله. وقع أصوات الحروف فيه...

«على طبيعتها الحروف كانت»، همس الصالح يُؤكد لنفسه، «على طبيعتها كما أعرفها، وترتيبها كما في العادة يأتيني...

أم أنّه الوهم يمسكني؟».

قام من سريره، وقف ينظر حوله، سار إلى النافذة المُطلة على الشرق يرى الشمس تحتل الأفق أمامه.

رأى أتباعه يجلسون ينتظرون خروجه، والشمس لم تكن قد تكشّفت تماماً بعد.

«كيف أعلم»، تساءل يرتجف، «كيف اليقين؟

أجمعها الدلائل تقول إنّها الكلمات جاءت من الأزل، أجمعها تقول إنّها من الحقّ.

ولكنّها نفسي مليئة بالهواجس.

من أين السؤال وهذا الشك والقلق؟

والعتمة؟

تُرى هل فعلتُ ما يُغضب الأحد، هل أخطأتُ...؟

ولكنّي أبداً لم أسلك طريقاً غير الطريق المخطوط، أبداً لم أخطُ ولو خطوة مُفردة في الظُلمة.

أم أنّي غير مُدرك فعلتُ؟».

بدأ يتنقّل بين سريره ونافذته، يمشي ينظر ليس إلى الأفق ليس إلى الشمس، ليس إلى السرير ليس إلى جُدران الغُرفة. يمشي ينظر لا يرى خُطواته لا يسمعها، يردّد ما جاءه في منامه.

«والتيه، عندما يأتيكَ، يُرافقكَ يُزيل آثاركَ.

يُرافقك يُزيل آثارك.

يُزيل رائحتكَ منها.

ولا يعود شيء منكَ فيها.

ينثرها.

ينثرها.

ولا يعود شيء منكَ فيها...».

ثلاثة أيّام لم يُغادر الصالح غرفته، ثلاثة أيّام كان أتباعه في انتظاره. يجلسون دائرة مُكتملة. مُغلقة. صامتين لا يهمسون لا يتهامسون... ينتظرون حضوره.

ثلاثة أيّام بأكملها جلسوا حول البئر يصغون يترقّبون سماع خطواته يأتي، يرونه يسمعون ولو جملة مُفردة يتلفّظ مخارج حروفها.

ثلاثة أيّام.

لم يخرج. وغيوم سوداء كانت تتجمّع تُخفي السماء تُظلّلها، والشمس في طريقها كانت تُغادر.

كان الواحد منهم لا يفعل سوى سماع الصالح يقول كلماته. لا يسأل لا يتساءل. يأخذ كلمات الصالح ترافقه كما نفسه، يُردّدها طوال نهاره وليله... حتى يحفظها عن ظهر قلب، ويبدأ يقولها كأنّها كلماته.

كان صوته لا يُفارقهم.

«شاب لم يتعدّ الخامسة عشرة من عمره»، بدأ أصغر أتباع الصالح يقصّ عليهم، «كان يبدأ نهاره يمسك بثلاث قطع من النقود الذهب يُحكم قبضته عليها، يَجلس أمام بيته يَضع النقود في أوّل حُفرة يجدها، يُكمل يُنقّلها بين الحُفر لا يأبه ماذا يتجمّع داخلها... ماء آسن، روث بقرة ضالّة، ديدان وبقايا جُثّة بالية. يستمر ينقّل نقوده حتى يكون ولا يتبقّى ما يُشير إلى معالمها، بل وحتى تكون رائحتها ليس أقلّ نتانة ممّا مرّ عليها.

يأخذ نقوده يُحاول يُقايضها مُقابل ما يهدّئ جوعه. يوماً لم ينجح، رغم أنّه كان يُقسم بأسماء الله أجمعها أنّ ما بين يديه نقود ذهباً، بإمكانه يُنظّفها ويُقايضها بأكثر ممّا يُهدّئ جوع ليلة.

أربع من القطع... قد تكون أفضل، قال يوماً لنفسه، الجشع كما الجوع، عليّ قتله وإلا قتلني.

وبدأ يُنقّل أربعاً من القطع بين الحُفر المُمتلئة بالقذر. لم يُقايضوه ولم يأكل.

لعلّها النتانة؟، تساءل بينه وبينه ليبدأ يُعطّر نُقوده يوماً بماء النعناع يوماً بماء الورد.

لم ينجح.

لعلّه لونها؟، قال يصبغ ذهبه بماء الذهب.

ليس بإمكانه الإنسان يُقايض بماء ولو كان بلون المعدن الثمين، قالوا له، ليس من لا يبول أصفر.

تقول القصّة إن الشاب قضى نحبه يُفكر ماذا يفعل، كيف السبيل يَجعلهم يُقايضون ذهبه بكفاف يومه».

همهموا يتساءلون عن القصّة وما غايتها.

قال «لا أعلم، ولكنّها قصّة سمعتها من الصالح قبل شهرين من الآن. قلتُ أقصّها علينا لعلّنا نُدرك غيابه»

لم يخرج.

مكثوا ينتظرون الصالح سنتين وأشهراً ستة، ثم غادروا المكان. الواحد تلو الآخر كلّ في طريقه، يحمل بضع حبّات من التمر يُحكم قبضته عليها، يسير إلى حيث تأخذه قدماه.

لم يبق من أتباعه ومن معهم سوى رجل يُلقّب بالنياح، بمثل عمر الصالح تقريباً كان، «الصالح مِن صَلَحَ»، قال يجلس يتكئ على جذع من النخيل جاف، «الإنسان مِن أنَسَ، والحاكم والحكمة مِن حَكمَ... ومَن يَحكم إنّما بما اختبرت نفسه وأنت، وكذلك مَن يُحكم».

كان الوقت مساء وبعير يقطع خطّ الأفق ورعيان.

4

«تُحاول تسير نحو الضوء لعلّكَ تجد الطريق إليكَ»، أكمل الصالح يُحاول يسترجع منامه، «لعلّكَ تجد الطريق إليك.

إليكَ.

لا سير فيها لا مسار. لا طريق لا زقاق.

ليس إليكَ ليس إلى غيركَ.

ليس إليكَ ليس إلى غيرك».

ثلاثة من أتباع الصالح، بعد يومين، عادوا، وبعيداً عن الأشجار والظل، تحت أشعّة شمس الظهيرة، صامتين جلسوا.

عند منتصف الليل، وصل آخر أتباعه.

«المالك والمليك والملاك من ملكَ والعبيد والعباد مِن عَبَدَ، ومَن يعبد لا مُلك له ولا حتى نفسه.

المالك يمتلك نفسه. وغيره. أم أنّها نفسه بما امتلكت رهينة. سجينة.

المالك سجين نفسه، كما المملوك.

البعير مِن بَعَرَ. البعر وسخ البعير ورائحته. البعير، اسم مُشتق مِن وسخ. بل إنّه اسم وسخ. ونأكله»، أكمل التياح يقول، يُمسك بثعبان يقشّر جلده.

الجزء الثاني

1

«للحياة أقدارها... غيب على الإنسان يراه»، قال الصالح يُحدّث أربع أخواته يوم رحيله. كان الوقت صباحاً، أبوه لم يكن هناك وصُغرى أخواته كانت لتوّها قد وصلت، تحمل طفلها تسند رأسه بيمناها، تُرضعه وتُغني له كما أمّها كانت تفعل معها حتى يأخذها النوم وتتوقّف عن البكاء.

«قد يكون الربيع أجمل لسيركَ»، قالت صُغرى أخواته تُحاول تُؤجّل رحيله، «للرّبيع رائحة ألوان تُرافقكَ، والأخضر من حولك سيجعل سيركَ أخضر».

«عليّ أرى غيبي»، قال ينظر إليها، يُمسك بيدها وقد أدرك أنها ليست جزءاً من غيبه، وأنّه لن يراها بعد رحيله. ولا أباه ولا أزقّة بلدته.

نظر حوله يرى جدران بيته. كان سقف البيت قد تساقط طينه، والأرضية تقشّرت والجُدران تشققت وبانت أحجارها، ناتئة كما كهف، تعتليها خُضرة طحالب وأزرق، وكلمات الخالق مُرسّمة على الجُدران أشكال ملوّنة، وقنديل يتدلى من سقف الغُرفة، رمز لغنى وجد طريقه إلى بيت الصالح فترة من الزمن واختفى.

قد تَطول طريقكَ»، قالت ودموعها تنزلق تُبلّل وجنتيها، وقطرات دافئة تسقط على وجه رضيعها، «وقد يكون ليلكَ كما سيرك طويلاً. ليل الخريف بارد. ليس فقط هنا.

أرافقكَ إن رغبتَ، أسير خلفكَ كما ظلّكَ أحميكَ، أمامكَ وحولكَ، أزيل عثرات الطريق وتحت أقدامكَ. أجمع أوراق الشجر أصفرها وأخضرها أحرقها أدفئكَ...

والنجوم أقطفها والسماء أضيئها، والأرض أجعلها تستوي هضابها وجبالها. ألوّنها. ومن أجلكَ أجعلها بساتين أزهاراً. وثماراً وزيتوناً.

ليس الآن ترحل، طفلي لا يزال رضيعاً.

لا يزال يحتاج صدري، كما تراه يأكل ينام، لا يزال ينتظر يرى عيني.

ليس الآن، لا أستطيع أرحل عنه يموت.

سنتين وأكون معكَ.

تعلم أنّي لولاه رافقتكَ، لولاه تركتُ الحياة من أجلكَ.

ليس الآن ترحل»، قالت تنظر إلى كُبرى أخواته تستجديها تقول ما يمنع رحيل الصالح أو يؤخره. لم تجد كبرى أخواته ما تقوله.

قبل غروب الشمس غادر الصالح بيته، يمشي يتنقّل بين أزقّة بلدته، يأخذ طريقه بين المنازل والبساتين، يتّجه إلى سوق النحاسين ليمرّ بين حوانيته لآخر مرّة في حياته. لم يكن للصّالح أن يُغادر بلدته من دون أن يرى النحّاسين وكيف يُحوّلون المعدن قطعاً منقوشة بكلمات وأشكال. كان يعلم أنّ الزانيات هناك، يقفن عند مدخل السوق، ينتظرن من يدفع لهنّ ثمن أجسادهن. تمنّى لو

يختفين ولو ساعة مروره فلا يراهن ولا يسمع أصواتهن. كان يرغب لو تبقى لبلدته صورة لا تشوبها شائبة في ذاكرته.

2

سنة اثنين وعشرين وستمائة لهجرة النبي، صلاة الله عليه وعلى صحبه، خرج الصالح من بيته، في السادسة عشرة من عمره كان، يمشي يتنقّل بين أزقّة بلدته المُترامية فوق سلسلة من الجبال ثلاثة، يقطع البلدة على طولها، بعيداً عن طريق التجار المُشبعة برائحة الحمير والماعز، بعيداً عن الأسوار الصماء، المُمتدّة حول البلدة تحميها من فضاء العواصف والغزوات. سار الصالح يودّع بلدته، يتوقّف بين الحين والحين ينظر إلى منازلها ذات القباب المدبّبة، وجدرانها المبنية من الحجر، المزينة بمشربيات خشبية خضراء وزرقاء.

بعد ساعة من السير البطيء، عرج يدخل حي الفقراء يرى منازله المصبوغة بألوان فاقعة وبرّاقة، يأخذ من رائحة بساتينه الممتلئة بأشجار الليمون والبرتقال، ومن هناك أخذ طريقه إلى سوق الحدّادين. كان الوقت مساء، وكان المكان خالياً سوى من بعض المارّة وأصوات القطط. دخل السوق من غربه يتجه نحو سوق النحّاسين، وصل أين كان يقضي ساعة المغيب من كلّ يوم، توقّف هناك، التفت ينظر إلى السوق لا يقوى على دخوله لا يقوى على مُغادرته. وشحّاذون وأطفال يلتحفون السماء من حوله، ونساء قضين ما يكفي ليكنّ زانيات، بعضهنّ جميلات، وأخريات نصف عاريات، تُخفي الواحدة منهن قبحها خلف عُريها وصوت ضحكاتها... وفتيات صغيرات السنّ لم ينضجن بعد، نحيلات كما خشب مصقول، شاحبات الوجوه غائرات العيون، يعلو ملابسهن القذر كما قيء، تقف الواحدة منهن تمسك بثياب أمّها ملتصقة بها كما شاة جُزّ صوفها. كلّ وثمنها. صامتات ساكنات لا يتحرّكن. ينتظرن حلول الليل والعتمة ليكون يوماً آخر قد مضى من دون ألم يعرفنه ولم يعتدنه بعد.

«أين سيرك»، سألته إحداهن، زانية في الأربعين من عمرها، مُمتلئة الجسد والنهدين كانت، نحيفة الوجه وشفتاها بلون الرمان حمراوان، شعرها منثور أسود، ترتدي ثوباً قروي الألوان والرائحة، أصابعها دقيقة موشومة بأزرق، كما بين عينيها وتحت شفتيها. نقطة داكنة الزرقة فوق جبينها وثلاث تحت امتلاء شفتيها.

«لم أبدأ سيري بعد»، قال ينظر إليها يتحقّق منها.

«ولكنّكَ تسير»، قالت تبتسم.

«ربّما، ولكنّها الطريق لا أراها. ليس بعد».

«أرى طريقكَ خلفكَ تُلاحقكَ».

«أعلم، ولكنّها للآن لم تصل»، قال يتململ في جلسته يُحاول يُخفي ضيقه.

أمسكت يده تنظر أمامه معه.

«سيطول سيركَ»، قالت تهمس وقد اقتربت بوجهها حتى كادت تلامس وجهه، «وسبعاً من السنين ستكون أمامكَ وأخريات مثلها خلفكَ...

لا تدع الأرض تتوقّف ترتجف تحتكَ.

لا تدعها تتوقّف ترتعد أمامكَ.

والشمس والقمر».

نظر إليها وقد اقترب منها يلتصق بها، وضعت يده بين راحتيها كما أمّ تفعل مع ابنها عندما الخوف يمتلكه.

«تعلم أنّه سليمان الحكيم كان يكلّم النحل يُحدّثه»، قالت، «والطير يُعلّمه كيف يطير. والفراشات.

والنمل، كان الحكيم يجمع معه طعامه. قمحاً وشعيراً. يتنقّل كما النمل فوق التراب، ينبش الأرض يبحث. يجمع يخزن. وينصتُ. والأرض تحته ترتعش.

تُنشد لمجده.

طوال حياته الحكيم كان يُصغي للأرض يسمعها... طوال حياته كان ملتصقاً بها. يتحسّس ملمسها. دفئها. ينام والتربة من تحته تئنّ مُتعتها. تصرخ وبيديه يتحسّسها يُداعبها. وخارجها وثناياها. وبوجهه يُلامسها وفمه يأخذ من عطرها بعد مطر.

والأرض تحته تنتفض. ترتعش.

وهو يرتجف من شدّة البرد بعد تعب.

يُمرّر أصابعه فوقها.

ترتبكُ التربة أكثر.

وترتعد.

ينام».

صامتاً كان الصالح يُصغي للزّانية، ينظر إلى طفل على مقربة منهما يلعب. في الخامسة من عمره كان، يرتدي عباءة ملوّنة، موشاة بخيوط صفراء مذهبة، وعمامة تكاد تغطي نصف وجهه. وآخر يرتدي مثل ثيابه، يُحاول يمسك عصفوراً، والعصفور لا يُغادر المكان، يطير عندما الطفل يقترب منه ويعود يحطّ، غير مكترث يتنقّل، ليس بعيداً عن الطفل ينتقي حبّات من القمح يأكلها، ويعود يطير ويعود يحطّ، ويعود ويأكل. والطفل يترقّب العصفور ويقترب، والعصفور يقفز، وليس بعيداً عن الطفل يحطّ، ينتقي حبّات القمح ويقفز.

ساعة بأكملها والطفل يُحاول يمسك العصفور والعصفور لا يُغادر المكان، يبتعد عن الطفل قدر حاجته، ويكمل يأكل، إلى أن أتى أبو الطفل وأمسك بحجر بحجم كفه وهوى فوق العصفور يهشّم عظامه.

كاد العصفور يموت.

«ها هي الكواكب في مساراتها في السماء، ها هي وحولكَ تدور»، أكملت الزانية تقول، «ها هي أمامكَ والشمس معها والقمر».

نظر الصالح إلى السماء.

«سيكون يوماً وتعدو عدوها مثلها».

نظر الصالح إلى الزانية لا يسمع تماماً قولها، لا يرى سير الكواكب ولا شكل القمر.

أمسك بيدها وأطراف ثيابه لامست ثيابها.

«إنّ الكون كلّه فضاء»، قالت ويداها تحيطان يديه، «وحدكَ عليكَ طوافه وحدكَ تَعيش أقطابه، وهناك... ستأتيكَ الصقور تنهش أحشاءكَ وبعض أعضاء.

ومن بعدها... قد يكون صباح وقد يكون نهار».

نظر الصالح إليها.

«لا أرى غير ما قلت»، قالت.

«قد لا تكون زانية»، تساءل الصالح يغادرها.

بعد يومين، وجد نفسه يقف تحت شجرة جرداء ترتفع على حافةِ هاوية، نظر إلى الأفق المُتعرّج على طوله أمامه. برد الخريف نخر عظامه، ابتعد عن الشجرة ووقف تحت الشمس يأخذ من دفئها.

«خُطوتين وأكون وحدي، خطوتين وتكون طريقي أمامي والكون ملكي»، قال بينه وبينه، شدّ معطفه إليه وجلس ينتظر يرى طريقه، «ماذا لعلها الزا... المرأة قصدت، كيف أجعل الأرض تنبض تحت أقدامي؟».

عند المغيب قام يتركَ مكانه.

بدأ سيره دوائر دوائر، يمشي لا ينظر يمينه لا ينظر يساره. لا يلتفت حوله. يمشي غير آبه لا يرى سوى أمامه.

والغيوم كانت تتجمّع تُخفي الطريق خلفه.

وبنفسج كان يفقد لونه وسرب من الطير الأبيض كان يطير فوقه، يُظلّل طريقه يقيه حرّ الشمس وحدّة الضوء من حوله.

عند المغيب توقّف عن السير ينام.

مكث مكانه لا يأكل لا يشرب.

ينتظر طريقه، يترقّب إشارة تقول إلى أين يسير.

نهارين وليلاً، نهارين وليلاً لا يسمع سوى ماء يجري يخترق ظمأ التربة يحفر طريقه.

ينظر جهة الشرق ينظر جهة الغرب، إلى الجنوب إلى الشَمال. لا شيء يحدث لا شيء يراه يُشير إلى غيبه. يُعاود ينظر حوله.

لا شيء.

ينتظر، وسرب الطير الأبيض كان يُحلّق فوقه.

يومين وثلاثة أسابع جلس ينتظر... وينظر، يومين وثلاثة أسابيع والسكون مُمسك بالأرض لا يدعها ترتعش، مطبقاً عليها لا يدعها ترتعد تدور. وباطنها لا يرتجف.

حتى أنّ الماء يجري لم يعد يسمعه يحفر طريقه.

بدأ لا ينام. ونمل كان يركض يجمع للشّتاء.

طير بحجم القُبّرة حطّ على غصن شجرة تبعد عن جلوسه ثلاث أشجار. بلون الأرض كان. حطّ لا صوت لأجنحته لا صوت لجوعه.

مكث الطير لا يتحرّك يومين، يُراقب النمل يركض، يرى بعضه يدور يُحاول يجمع غذاءه طوال النهار. بعد يومين، نام الطير يموت، وبدأ النمل يقترب من الطير يمزّق جلده. يمصّ دمه يُجوّف داخله. يأكله.

نظر الصالح إلى العصفور ولم يبق منه سوى ريشه وعظامه، «لماذا الطير لم يأكل النمل، لماذا وقد كان بإمكانه يفعل، فلا تتوقّف الأرض عن حركتها تحته»، قال وبدأ يسير يأخذ جهة الجنوب، «أم أنّه الطير قد اكتملت حياته»، أكمل يسير يقول.

الطير الأبيض كان يحلّق، يأخذ طريقه يبتعد عن سير الصالح، والشمس وسط السماء كانت، وأوراق الخريف ما زالت تتساقط.

3

بعد ثلاث من سنين التيه والجوع، يجوب بحراً من رمال صفراء لا حدود لها، وصل الصالح بلدة تقع سير يومين عن تقاطع طرق تشكّلت معالمها عبر الزمن من سير القوافل والدواب. مُترامية الأطراف واسعة كانت، تتناثر منازلها زرقاء وبيضاء، تحيطها بساتين الفل والياسمين. لا شيء كان يُشير إلى حدودها لا شيء كان يجمعها بلدة سوى أشجار البرتقال على أطرافها، ومقبرة وسوق مليء بالتجار يعرضون نفيس بضائعهم، وإبلاً وأقمشة وتوابل.

جلس ينتظر غياب الشمس وهدوء البلدة.

هزيل الجسد نحيل الوجه كان، رثّ الملابس حافي القدمين، أشعث الشعر ووجهه قذر كعامل في الأرض لم يمسّه الماء أيّاماً وأسابيع، جائعاً يسمع قرقرة بطنه، وهسهسة نعام.

عند المساء تقريباً، دخل البلدة من شرقها يرى حماراً أسود اللون كما ليل غابت عنه النجوم، صغير الحجم كما ثعلب، مُتقوّس الظهر، قصير الذيل والقدمين. يقف عند شجرة كثيفة الأوراق والثمر، وامرأة وزوجها بجانبه، تارة تبتعد المرأة عن الحمار وتارة تقترب، تشتم الحمار تضربه وتبتعد، تخطو خطوتين وتعود وتقترب، تلعن اليوم الذي ولد فيه، تقترب من الحمار وتضربه وتبتعد... وزوجها يُحاول يحميه، يُقسم بالله أنه لم ينكح الحمار ولا حتى اقترب من ذيله.

«الحمير كما الكلاب»، قالت المرأة للصّالح واقتربت تمسك رسن الحمار ومقداراً من الشعير ورطلي قمح أخضر، وخبزاً وزيتوناً وقربة ماء، «لكَ الماء ولكَ الحمار تفعل معه ما تراه وتشاء»، قالت تنقّل نظرها بين الحمار وزوجها، «شفتاك جافتان كما رغيف محروق، والحمار سيأخذ مكان قدميك مشّقة الطريق وعناءها، وبإمكانك تعتليه كما يفعل الرجال مع إناثهم».

نظر الصالح إلى الحمار.

«أعلم، لا يبدو الحمار حماراً ولا هو يعي أنّه حمار»، قالت تنظر إلى زوجها، «يحتاج بعض الوقت ولشيء من الترويض فيُصبح حماراً كما سائر الحمير، وقد يُدفئ جسدك في الليل وقد يكون لك أنيساً.

الحمير حمير وإن لم تُدرك حقيقتها، والفحل فحل وإن لم يعتل شاة... أو غيرها. والكلاب كلاب.

ليس أنّ هذا الحمار يختلف عن سائر الحمير، ولكنّه يحتاج لمن يجعله يُدرك حقيقته، يحتاج لمن يجعله ينهق، وإلا فسوف تختلط عليه الأمور، كما ذكور الإنسان، تعلم أنّ الرجل إن وضعته بين الحمير ينهق، وإن عاش بين الكلاب ينبح، وسيقضي حياته بين الماعز يعتليها إن لم يجد أنثى إنسان».

نظر زوجها إليها، لم يجد ما يقوله لها وقد ضاق صدره وثارت نفسه، فأمسك بشعرها يجرّها خلفه يلعن أباه وأباها، وأمّه التي لولاها لما تزوّج ولا أنجب أطفالاً من شمطاء مثل زوجته. جرّها خلفه، وهي كما لو أنّها خرقة من القماش كانت، لا تصرخ لا تُقاوم، ولا فعلت ما يجعله يتركها أو يتوقّف عن ضربها.

لم يكن أمام الصالح سوى أن يبتعد عن الرجل وقد هاج كما ثور سجين، أخذ الحمار وما عرضت عليه المرأة من شعير وقمح وخبز وزيتون، «لعل الرجل يمسك غضبه»، قال الصالح لنفسه، «لعله يهدأ إن غاب الحمار من أمامه».

دخل الصالح البلدة يأخذ طريقه بعيداً عن الطرق المأهولة، بين كروم العنب وأشجار التوت. بعد ساعة من السير سمع أنين رجل طاعن في السنّ يبكي حاله. التفت حوله يبحث عن المُسن لعلّه يُخفّف ألمه. لم يره. أشجار التوت خضراء كانت، تحيط الصالح تحجب أمامه. وتين مُثمر وزيتون.

مشى يقتفي أثر الصوت وخلفه الحمار، وجد المُسنّ بين صخرتين دون معول يُحاول يُراوغ التربة يحفر، يداه مُمزّقتان ملطّختان بدمه.

جلس بجانبه يسأله إن كان يحتاج عونه.

«لا»، أجابه المسنّ، «يكفيه الإنسان ما أصابه».

«لا أقصد إيذاءك»، قال الصالح وقد اقترب من المسن أكثر.

«أعلم ولكنّه الإنسان من يحفر قبره، ليس غيره».

«لا أرى الموت يقترب منكَ».

«الموت أبداً لا يقترب»، قال المُسن، «نحن من نخطو إليه».

«لماذا ترغب الموت؟».

«ليس كل من يخطو إلى شيء يرغبه وليس كل من يرغب بشيء يخطو إليه».

«لماذا تخطو إلى الموت؟».

«الله لا إله إلا هو العالم، ولا علم إلا عنده»، قال المسنّ.

«ولكنّكَ من يذهب إلى الموت، وليس من يسير إلى شيء لا يعرف سبباً له».

«لا أحد منّا يعلم»، أجاب المسنّ، «ليس منّا من يملك سوى الظنون».

«ولكنّه الواحد خلق الإنسان يعقل. ويعلم. خلقه يُدرك».

«هل حقاً؟»

«لا أعلم. هكذا يُقال وهكذا أعتقد».

نظر المُسنّ إلى الصالح وبدأ يحدّثه عن نوقه، أكلتها الذئاب والورّاق صامت يقف بين صبيانه، ينظر إليها لا يُحاول إنقاذها ولا فعل ما يُربكها أو حتّى يجعلها تلتفت حولها.

«على مهلها الذئاب تأكل كانت»، قال المُسنّ، «على مهلها تلعق الدماء لا شيء يُعيقها.

يومين وصوت عظامها يتكّسر.

لم يبق من النوق سوى جلدها مُمزّقاً ورأسها.

سألتُ الورّاق كيف لم يُحاول يَمنع الذئاب وهو قادر على قتلها.

إنّ الكون نقطة تلتصق بنقطة، أجابني، الكون كثرة. الكثرة وفرة. والواحد اكتمال. ربعه نقصان. ليس من الكون بل داخله، ونوقك في الكون لا تزال.

نوقي لم تعد نوقاً، قلت له، ليست في الكون ليست خارجه... أم أنّ بإمكانك تجعل الكون يُعيدها نوقاً أحتسي لبنها؟

لا، قال الورّاق، لا يُعيد الكون ما له... أعطيك ربع ما عندي.

ربع الشيء، ماذا يكون؟ لا تملك سوى ناقة، ماذا أفعل برُبعها؟

تفعل كما الذئاب فعلت مع نوقكَ.

لست ذئباً وربع ناقتكَ ليس ناقة.

قال أعطيكَ الناقة أكملها.

هل لها رُغاء ثلاثة؟

لا، قال الورّاق، ولكنّها لا يشوب بياضها أسود».

توقّفَ المُسنّ عن الحديث وعاد يُراوغ التربة يُحاول يَجعلها تُوافق تأويه.

نظر الصالح إلى العجوز لا يعلم ماذا يقول له، كيف يجعله يُبقي على حياته، كيف يجعله يؤمن بأنه لا حاجة أن يفعل ما تفعله الطبيعة من تلقائها ومن دون أن نطلب منها.

«ليس بإمكانه الإنسان يَخلق حياة»، قال المُسنّ يُراوغ تُربته، «ليس بإمكانه يجعل غيره يأخذ مساراً بغير مشيئة الرب. قدره».

كان القمر هلالاً، والغيوم تملأ السماء تمسك ضوء النجوم، والكلاب بدأت تنبح وصفير ريح...

والصالح من شدّة جوعه وإعيائه لا يقوى على السير ولو خطوة واحدة. ولا حماره.

ليس بعيداً عن المسن، تحت أشجار التوت، افترش الأرض ينام. والحمار بجانبه.

في صباح اليوم التالي، بعد الفجر بقليل، كان الصالح يأخذ طريقه إلى السوق يرى أهل البلدة، يبحث عن الورّاق يسأله عن المسن ونوقه، وقد يجد من يقدّم له ما يسدّ جوعه.

كان أهل البلدة نياماً.

في بلدته، بمثل هذا الوقت، كان يستيقظ فيجد ثلاث أخواته قد بدأن يعملن، يُزلن الغبار وآثار أمسهن... والباعة يقودون عرباتهم والرعيان يُنظّمون سير قُطعانهم والكلاب تنبح.

كان لا يُغادر غُرفته ولا سريره حتى تأتي صغرى أخواته وتقصّ عليه قصّة أو شيئاً من يومها، تقضي معه ساعة من الزمن وتُغادر إلى بيت زوجها.

«ليتها أختي ما تزوّجت»، قال الصالح يمسك دموعه، «لزوجها تاريخ يمتد في الصحراء سبعمائة من السنين وطباعه كما غربان تُحيط بجيفة تنتفها.

ما كانت أمّي لترضى بحياة ذلّ لابنتها، وكانت ستقضي على زوجها وعلى تاريخه في الصحراء لو أنّها لم ترحل».

في الأربعين من عمرها كانت أم الصالح عندما قضت. في الثالثة عشرة من عمره كان.

فجأة غادرت. فجأة رحلت.

سار الصالح يرى أمّه ممدّدة أمامه كأنّما لتوّها ماتت، يسمع صوت نسوة يُحدّثنه وأخواته يصرخن... سار يتنقّل بين الحقول ريثما يستيقظ أهل البلدة وتدبّ الحياة فيها. كان الليل في أواخره وكانت العصافير ما زالت تنام.

لم يكن حتّى ذلك الحين يُدرك ماذا يُخبّئ الغيب له، لم يكن يرى طريقه أمامه، لا يعلم أين خُطاه تأخذه. وسيره. أين ينظر أين عليه يضع قدمه.

قلبه ينبض، يوجس باقتراب موعده مع قدره. التفت حوله.

لا شيء.

ارتجف داخله. ضوء الشمس بدأ يتسلّل ونسوة يتبعهنّ أطفالهنّ يسرنَ إلى الحقول. كان الأخضر يملؤها. والثمار بلون الأصفر وأحمر.

جلس ينظر إلى الأطفال يتراكضون خلف أمهاتهم ويلعبون، يصرخون ويضحكون، وقطعان من الغنم كانت تسير والسماء جرداء، زرقاء بلون أواخر كوانين الغاضبة كانت. نظر إلى السماء ثانية، إلى الأطفال إلى النساء.

«لماذا السماء بلون الشتاء والغضب»، تساءل الصالح يمشي يخرج من البلدة ليدخلها من جديد، «إن ضللت الطريق، عليكَ الرجوع إلى حيث بدأتَ خطواتكَ حتى تتيقّن من ثُبوتها»، تذكّر قول حكيم.

خرج من البلدة وبدأ يدور حولها يَدخلها ثانية من غربها، يُحاول يسلك طريقا غير الذي سلكه. دار حول البلدة يأخذ طريقه بين حقول القمح وقد أخذت نُضجها بلون الشمس من شهر حزيران، بعيداً بعيداً عن منازلها كان يمشي والحمار خلفه. عند المساء تقريباً وجد نفسه أين رأى الحمار... كان الرجل لا يزال يضرب زوجته، يصرخ عليها، يشتمها ويشتم يوم ولادتها، يلعن أباها وأمّها.

بعد ساعة من السير وصل أين كان المُسنّ يحفر قبره.

«كيف يذهب الإنسان إلى حتفه، كيف يسير إلى موته؟»، جلس يسأل المُسنّ وشمس الصيف كانت تلفح وجهه.

«كما تراني أفعل»، أجابه.

«ولكننا لسنا من نحفر قبورنا بأيدينا».

«كيف تعلم».

«هنالك من لا يُدرك موعد رحيله!».

«ليس الإدراك ما يُحدّد السير والمسار»، قال المُسنّ وعاد يُراوغ تُربته.

ترك المُسنّ وقام يُكمل طريقه يتّجه نحو السوق يمرّ بين المنازل يسمع ضوضاءها... كان الرجال جماعات جماعات يجلسون يحتسون القهوة يتحدّثون.

حاول يُبطئ يسمع حديث الرجال لعلّهم يقولون ما يفيد فيُدركُ قول المُسنّ.

أحد منهم لم يتلفّظ ولو بكلمة مُفردة تُذكّر بنوق المُسنّ ولا حتّى أنّه ذاهب بنفسه إلى حتفه... هذا يتحدث عن عقوق أولاده وذاك عن مكر زوجته، وكيف أنّها لا تأبه لتعبه ولا لحاجاته، وكيف تراوغ كل ليلة كي لا يمتلك مؤخّرتها... يوماً تنام بين أطفالها ويوماً تقضيه عند أمّها، يوماً آلام ظهرها تشتد عليها وآخر آلام رأسها، وحر الصيف يجعل رائحة الأجساد كما نتانة الجيف، وبرد الشتاء قارص فكيف تخلع ثيابها تحته...

«لا أحد يتحدّث عن إنسان يُغادر حياته؟»، تساءل الصالح بينه وبينه يرتعد، «كيف وللحياة مكانة عند الحقّ في المُطلق؟».

بدأ جسده يرتجف.

«قد أكون ضللتُ الطريق»، قال يسير يخرج من البلدة ليُعاود دخولها ثالثة. خرج من البلدة يَدخلها وقد تيقّن من توقيت دخوله، دار حول البلدة يأخذ طريقه... ثلاث ساعات. لم ير الرجل ولا زوجته.

أكمل طريقه يبحث عن المسنّ. لم يجده. والأرض مُستوية كانت.

نام هناك.

في صباح اليوم التالي، وأهل البلدة نيام، بدأ يتنقّل بين الحقول والحمار خلفه، يأخذ طريقه إلى السوق، يسير على مهله ريثما تخرج النسوة يتبعهنَّ أطفالهنّ إلى الحقول. نظر إلى السماء يتيقّن من سيره. رأى لونها بلون حزيران.

دخل السوق يبحث عن الورّاق يسأله عن المُسنّ وكيف لم يفعل ما يمنع موت الرجل. وجد الورّاق يجلس مع صديق له، يُحدّثه عن حال الدنيا وكيف أنّ عمله بالكاد يكفي قوت يومه، يُشير إلى حزمة من القشّ يقول إن ثمنها يفوق ما يجنيه مدّة أسبوع، وإنّها ناقته تحتاج ثلاث حزم مثلها كل شهر إن لم يكن أكثر... وإنّه الرزق، في مثل هذه الأيام، لم يعد كما كان قبل سنتين فقط، وإنّ الأمر يعود إلى مقتل الخليفة.

اقترب الصالح من الورّاق يجلس بجانبه يسمع ما يقوله.

«كنتُ أرغبُ أرى ذئاباً تُهاجم ناقة تنهشها» قال الورّاق للصّالح دون أن ينظر إليه، «كنتُ أرغب أرى الذئاب تنقضّ عليها تلتهم أمعاءها داخلها. تلعق ماءها. دمها.

كنتُ أرغب أسمع ناقة تَصرخ ألم جسدها يَتمزّق... غير أنّي لا أستطيع أسمع ناقتي تُؤكل».

«والمُسنّ».

«لم يسمع نوقه تؤكل».

«ولكنّه...».

«تحت التراب ينام. كما أنّكَ»، قال الورّاق يُغادره.

«كيف، أم أنّه التراب فوقنا أجمعنا؟»، جرى الصالح خلف الورّاق يسأله.

«لا أعلم».

«من يعلم؟».

«ليس من يعلم سوى الحق».

«كيف الطريق إليه».

«ليس من طريق واحد تأخذه».

عند المساء، قبل غروب الشمس بقليل، كان الصالح يحثّ السير يخرج من البلدة وخلفه حماره، في طريقه لا ينظر خلفه.

الجزء الثالث

1

«غيب الحياة كما عتمة الليل»، قال الصالح يُحدّث نفسه يسير، «والأسود لون الاثنين.

الحق، لا غيب عنده ولا ليل. نور يفيض.

له الكون له المُلك يملكه.

المالك والمُلك.

لا عرش فوقه. لا حول حوله. لا غيره.

هو الواحد الأحد.

كيف الطريق إليه.

كيف أزيل التراب عنّي. كيف أخرج من عتمة الجسد.

أرى النور.

وأعبد. أعرف.

هو القدر مرسّم. هو الغيب المُقدّر».

الجزء الرابع

1

يُهرول كان الصالح يبتعد عن بلدة المُسن والورّاق، يُسرّع خُطاه يجري كما كلب جائع، وخلفه الحمار يركض، يأخذ مسالك جانبيّة خالية من الناس والأشجار، لا يأبه لأشعة الشمس فوقه ولا لحرّها. بعد ثلاثة أيّام من السير المتواصل دخل منطقة صخرية جرداء، ومن حوله لم يعد يرى سوى صخور عارية صفراء، تمتد على امتداد بصره وأبعد، وأصوات ضباع كانت تعلو من حوله وتقترب، والحمار بدأ يفقد قدرته على السير وعلى هضم الجفاف، يجرجر ذيله، وموته خلفه.

«تُرى كيف صُراخ النوق والذئاب تمزّقها»، تساءل الصالح يُقاوم جسده ويصدّ صوراً تمسك بصدره لا تُفارقه، تقبض على روحه كأنما ألم ماض سحيق، «صراخ النوق قدرها. سماعه النوق تصرخ ألمها، رغبة الورّاق وقدره. ذهاب المُسنّ إلى موته قدر مقدّر له منذ الأزل. رغباتنا مُرسّمة بمشيئة العليّ القادر، مخطوطة مقدّرة»، قال الصالح وقد أخذه الدوار والأشياء من حوله بدأت تدور. مدّ يده يتكئ على الحمار فهوى الحمار وفوقه الصالح، وكما هوى بقي الحمار على وجهه، لا صوت له، وكما جيفة مُتصلبة مُنتفخة مدّ الحمار أطرافه، ورأس الصالح فوقه. بين حيّ بين ميّت لبث الصالح يهذي بضعة أيّام، تارة يصرخ بأعلى صوته تارة يهمس، تارة يُحرّك يديه يمدّهما تارة يكوّر جسده، يضع رأسه بين يديه ويئنّ.

بعد أسابيع ثلاثة أو أكثر، مرّت ليس بعيداً عن مكان الصالح قافلة من تجار الإبل والخيل، يُرافقها كثير من الرجال ونساء وأطفال وعبيد، قام الصالح يأخذ طريقه يقتفي سير القافلة، والحمار خلفه. نتن الرائحة والجروح تملأ جسده. وصلت القافلة، وخلفها الصالح، مدخل بلد واسع الأرجاء، مزروع بقبور لا شواهد لا أسماء تُميّز بينها، ورؤوس منثورة وجُثث ملطّخة بالدماء تشهد على مذبحة، ليس منذ زمن بعيد كانت. هي رسالة الخليفة، ليَعتبر من عليه أن يعتبر وتأكل الكلاب. كان عليه أن يزرع الرعب في قلوب رعيّته داخل منازلهم، ليخاف الأخ من أخيه والابن من أبيه، فيَحصر همومه ليتمكّن من القضاء على الخطر الآتي من الخارج... جيوش تزحف نحو سلطانه تقترب والطامعون في المُلك يملأون بلاطه.

سار خلف القافلة، بين الرؤوس والجثث، يُحاول أن يتخلّص من صور المسن وهو يُراوغ تُربته، يتذكّر طفولته ويستبدل أفكاره... فلا يظهر القلق على وجهه ولا شرود ذهنه، لئلا يكون وتُثار الظنون حوله وتحوم الشبهات. عند الحدّ الفاصل بين الحيّ والميّت، بعيداً عن الأشلاء والدماء، توقّف بين أشجار من النخيل ينظر أمامه، والحمار يقف خلفه.

نحّاسون وحدّادون ونجّارون على جانبي الطريق يعملون، كلّ مُنهمك بعمله لا يأبه بمن حوله... المدينة بأكملها كانت أسواقاً تلبّي حاجات الجنود المتنقّلين بين وسط المدينة وخارج أسوارها، فالخليفة ينفق على الجيوش من أجل تزويدهم بالمؤن والدروع والأسلحة ووسائل الترفيه وأجهزة سروج الخيل دون حساب.

لم يكن أمام الصالح سوى التوجّه للباعة المتجوّلين وقد انتشروا بأعدادهم يسألهم عن الطريق وأين الورّاقين وأصحاب الطرق على عادتهم يُزاولون عملهم.

«أيّ منهم تقصد؟»، سأله مُتسوّل يحمل كلّ ما يملك فوق ظهره. نحيل الوجه أشيب.

«ليس أحداً بعينه»، أجابه الصالح.

«ليس مَن لا أحد بعينه»، قال المُتسوّل.

«ليس في الحياة سوى طرق تأخذنا، واحد إلى ذاك الطريق يأخذنا وآخر يسير بنا إلى غيره. أسأل عمّن يأخذني إلى الطريق الحقّ».

«الحقّ وغيره»، قال المُتسوّل ينظر إلى الصالح، «كلاهما طريق».

«أسأل عن طريق يُفضي إلى النور».

«ليس من نور من دون ظلمة، وكلاهما طريق... إن أردت بإمكانكَ تتبعني»، قال المُتسوّل يشقّ طريقه بين الباعة والمارّة. كان الوقت ظُهراً والشمس وسط السماء لا تتحرّك. سار الصالح خلف المُتسوّل ساعتين وأكثر، يمشي والحمار خلفه، يدور خلف المُتسوّل كما تائه في دوائر مُفرّغة. يصل المُتسوّل حيث التقيا. يقف برهة. ويبدأ يشقّ طريقه من جديد بين الباعة والمارّة، كأنّما لتوّه بدأ يسير، ثلاثين دورة. إلى أن كان وخرج عن محوره يأخذ طريقاً يستقيم كما خيط مشدود، والصالح خلفه، يمشي يكاد يفقد وعيه، يترنّح يرتطم بالعربات والمارّة، يتكئ على كل ما يُصادفه في طريقه يُحاول يُدرك المُتسوّل... صور المكان بدأت تختلط أمامه، وأصوات من حوله بدأت تعلو وتعلو تتحول صراخاً، وضجيج دواب ومطارق تهوي فوق معادن. نظر حوله، كان المكان كأنّما ثُعبان يخلع جلده. يتبدّل. تمتزج معالمه مع بعضها، وسحب بيضاء تمسكها الريح تسيّرها حوله ودوار بدأ يضرب رأسه... بين السحب رأى نفسه عند سفح جبل يمشي، وظهر المتسوّل له عاري الجسد يصرخ. يقف فوق صخرة يُلوّح بيده، يُشير إلى أعلى وإلى أشجار تحترق أمامه. جمع غفير من حوله وجوههم شاحبة غبراء، أجسادهم نحيفة سوداء، يتحدّثون بلغة لم يسمعها الصالح من قبل. وخراف ترعى وخراف تُذبح. سيوف مُكدّسة فوق بعضها. حمير وغنم وبقر. وكلاب.

«ثلاثة أيام وآتيكَ»، قال المُتسوّل للصّالح والوقت كان مساء، «ليس في هذا المكان من طريق لم تُختبر».

نظر الصالح إليه يُحاول يستعيد وعيه، ثم نظر حوله يتبيّن معالم المكان ويبحث عن حماره.

«ليس في المكان من أكلّمه»، قال للمُتسوّل، «ليس في المكان سوى الموتى ومساكنهم».

«ليس في المكان من لا يُصغي إليكَ يَسمعكَ»، أجابه.

«ولكنّه المكان يخلو من الحيّ»، قال ينظر حوله وقد اختفى المُتسوّل فجأة كما التقى معه.

«من أين جاء وكيف يستطيع يتلاشى كأنّما ضباب؟ أم أنّه يقطن هنا؟» تساءل يُحاول يتذكّر ظُهور المُتسوّل وأين تاه منه حماره... كان يسأل بائعاً مُتجوّلاً عن الورّاقين وعن حياتهم، ما هي عاداتهم أين يُزاولون عملهم، كيف يمضون ليلهم ومن يدفع أجرهم... والبائع بريبة يُجيبه لا يعرف كيف يتخلّص منه. أسئلة كهذه لا يسألها سوى من له علاقة بالخليفة وأعوانه. البلاد من مشرقها إلى مغربها مليئة بالنزاعات الداخلية مهدّدة من خارجها في آن. فترة كهذه تكثر فيها الأقاويل

والدسائس، ومن له عدو يرغب التخلّص منه بإمكانه يفعل دون كثير من المشقّة... والبائع لا يريد الإجابة لئلا يرتبط بقضية تودي بحياة أطفاله.

«لا أعرف الكثير عنهم، لا أعرف سوى أنّهم يكتبون ما يمليه عليهم غيرهم دون زيادة أو نقصان...»، كان البائع يقول عندما ظهر المُتسوّل يسأل «أيّاً منهم تقصد؟»، ودون أن يُعير ظهوره المفاجئ كثير اهتمام «ليس أحداً بعينه» أجابه.

مُنهك كان الصالح يَقبض عليه تعبه ونومه، لا يقوى على الحركة، يجلس وحوله القبور تنتشر والجُثث.

نام يُحدّث نفسه، يتساءل أين ترك حماره. ثلاثة أيّام. دون حراك كما ميّت.

في اليوم الرابع استيقظ الصالح والمُتسوّل يجلس بجانبه كان، ونسوة يرتدين الأسود صامتات ينتحبن، يجلسن حول قُبور جديدة العهد لم تتماسك تُربتها بعد.

«هل رأيت أحداً تُحدّثه؟»، سأل المُتسوّل.

«لا، والمكان لا يسكنه سوى الموتى. غير أنّي في المنام رأيتُ طفلاً يُحاول يُمسك ثياب أمّه، يدور حولها يُحاول يقترب منها قدر امتداد ساعديه ولا ينجح. أمّه ساكنة في مكانها كانت تقف، لا تُحاول تُساعده لا تُحاول تردّه. لا أعلم إن كان ما رأيته رؤيا أم أنّه حلم لا أكثر».

«ماذا كان الطفل يقول؟».

«لا شيء قال، صامتا كما هذا النخيل كان».

«أين كان ينظر؟».

«لستُ على يقين، أظنّ إلى يديه يرى إن كانت تمتدّ أكثر».

«وأمّه؟».

«تُراقب سكونها كانت».

«وأنتَ، ماذا كنت تفعل؟».

«أنظر إليهما أراهما لا يقتربان لا يبتعدان».

«هل قلت للطّفل ما يجعله يقترب من أمّه أكثر؟».

«حاولتُ كثيراً ولكني لم أنجح أتفوّه ولو بكلمة».

«آتيكَ بعد أيّام ثلاثة»، قال المُتسوّل وغادر.

«هل رأيت الحمار، هل وجدته؟» سأل الصالح ولم ينتظر إجابة من المُتسوّل، اتكأ على جذع نخلة ينظر إلى المُتسوّل يتتبّع خُطواته، لم يره يمرّ بين أشجار النخيل يخرج. ضوء الشمس عموديّاً كان فوقه، لا سحب لا ظلّ.

جلس ينتظر عودة المُتسول. يُفكّر. يُصغي لا يسمع سوى عويل نسوة يتنقّلن بين الجُثث وبقايا الرؤوس، يبحثن عن وجوه يتعرّفن عليها. يصرخن. وعربات مُمتلئة بالجُثث يدفعها رجال لا تظهر

وجوههم يُفرّغون حمولتها، تتراكم فوق بعضها الجُثث كما نفايات. رائحة موت.

«ربّي مالك الكون أنصر أعداءه»، صرخت امرأة تنظر إلى السماء، «ربّي ربّ العباد اجعلهم أسياداً له. ولأطفاله. ليرى نساءه جاريات يخدمن، ليراهنّ بين الأسرّة على أربع والرجال.

وكما فعلت بفرعون يوم أتت مشيئتك، ربّي افعل معه.

ربّي لا تُهمله.

ربّي عفوك... لا تُمهله».

ثلاثة أيّام مرّت... أتى المُتسوّل وكما أتى غادر. لم يسأله عن أحلامه ولا إن جاء أحد يُحدّثه. وقف بُرهة من الزمن أمامه وغادره، والصالح في مكانه كان يجلس. يُراقب. يسمع النساء ينتحبن وقططاً تموء لا تجرؤ تقترب. تنتظر. في الليل تأكل. والكلاب. أشلاء وبقايا ونُتف من الجلد. ودماء.

في اليوم السادس بدأ يسمع صمته.

مكث في المكان أسابيع لا يعرف عددها حتّى كان وبدأ يسمع أصواتاً لم يتمكّن من تمييزها... «ليس نحيب نساء»، قال يؤكد لنفسه، «ليس عربات ولا رجال. ليس مواء ولا عواء. ليس المُتسوّل. ماذا لعلّه يكون!».

كان الليل يهبط. والقطط والكلاب تنتظر الظلام كعادتها.

جسده يرتجف، وحرارته تهبط حدّ الثلوجة وترتفع. ينتفض. كما لو أنّ برقاً يقبض عليه يصعقه.

أحد لم ينتبه أحد لم يلتفت إليه. ولم يكن أحد ليفعل سوى عجوز قضت من العُمر ما يجعلها عجوزاً... أتت في عتمة الليل تُدثّره. لا تسأله لا تُحدّثه. لا تفعل سوى أن تكون معه تُخفّف وحدته. زمن زحف من أقاصيه أتى بها يجعلها تكون. ليس من أجلها... له. من أجله. جسد امرأة لا يُقاوم. عجوز.

أدخلته تحت ثيابها يأخذ من حرارتها بين ثدييها. يُلامسها. يتحسّس جلدها ينام. يومين.

بين غائب لا يعي ما حوله بين أصوات ضجيج. وصور تأتيه تتمزّق أمامه، تتساقط فوق بعضها كما المطر تغمره.

يُحاول يمسكها يتبيّن تفاصيلها. تتمزّق أكثر.

يُحاول يُزيلها. تتكاثر.

أدخلت العجوز يدها تحت ثيابه تمسك أعضاءه يهدأ وبين فخذيه كانت تُمرّر أصابعها تُلامس خلفه، تمسك نبضات قلبه تُزيل خوفه. على بُطئها تُحركُ يدها تُمرّرها... على بُطئها تُحيط أنينه، وبراحتها بدأت تتحسّس عضوه... تضمه بين أصابعها تُلاطفه ينتصب. وعن وجهه كانت تُزيل دموعه.

جسده ينتفض يبترد.

خلعت ثيابه تضمّه إلى جسدها تأخذه، فوقه تُحيطه، تأخذ منه آلامه تُفرّغ جسده.

نمنمة خَضَر تسري داخله تمسك أطرافه.

بدأ يهدأ.

وبدأت الأصوات تكون أشبه بالإنسية يسمعها، وومضات من الصور بدأت تظهر أمامه... رأى المتسول ثانية، منكوش الشعر كان، يقف أمام العراة يُلوّح بيده، يصرخ والجمع من حوله والخراف.

مع بزوغ الشمس نام والعجوز بجانبه تجلس تحرس حوله. وطريقه.

عند الظهر، بعد نوم يومين، والشمس في مُنتصف السماء، كان الصالح في طريقه يُغادر المكان... يسير يدخل البلد من جديد. بين أشجار النخيل توقّفت العجوز عن سيرها تمسك بيده، «طريقكَ أمامكَ. وحدك لا أحد يُرافقكَ»، قالت، «لا تنظر خلفكَ لا تلتفت حولكَ، لا شيء هناك. لا شيء معكَ سواك».

سحب الصيف كانت تملأ السماء على غير عادتها.

2

من خلفه، حول القبور والجُثث، كانت النساء تَستجدي ربّها تُنادي، عيونها نحو السماء تَبكي تُصلّي، تقول إنّها لا تخشى الظمأ على رجالها ولا تخاف الظلم على نفسها، ولا إنّها تخشى الموت ولا هي الحياة عندهنّ جديرة بالحياة، ولكنّهنّ كما سائر النسوة أمّهات، والأمّ تحمل طفلها شهوراً تسعة ليخرج لا لمأساة، ولا هنّ يَحملنَ أطفالهنّ لحياة ظُلُمات، وحتّى إنّها الطيور تبحث لصغارها عن نور دفء وقمح وماء.

«أمن أجل العذاب وُلدنا»، صرخت إحداهن، « أمن أجل هذا خُلقنا. ليتنا ما كنّا. ليتنا تراباً ما زلنا. ليتك ما فعلت ولا أدخلت روحاً إلى أجسادنا.

ربّنا لماذا خلقتنا وتركتنا؟

أم أنّك لا تسمع نداءنا ولا ترى عذابنا؟ ألسنا من عبادك ومن آدم أتينا؟

ألم نُقم الصلاة لذكرك وأطعناك، واتّبعنا كلماتك وبآياتك آمنّا، وعن الفحشاء ابتعدنا، والخمر اجتنبنا، والميسر ولحم الخنزير حرّمنا.

ما قتلنا ولا سرقنا.

ربّنا ماذا فعلنا، لماذا أطفالنا، ألا يكفي فقرنا وجوعنا، ألا يكفي هتك أعراضنا؟ رحماك ربّنا، ماذا نفعل حتى تُخلصنا؟

أم أنّك كما فعلت مع أيّوب تمتحن إيماننا... ألا يكفي ما حل حتى الآن بنا؟ أليس من أحد يدخل التجربة غيرنا؟ هل خلا الكون إلا منّا؟».

3

بينما كان الصالح يسير، يُحاول يأخذ طريقه بين العربات واكتظاظ الباعة والناس، يتلفّت حوله يبحث عن الحمار، ارتطم بطفلة في العاشرة من عُمرها تحمل سلّة مُمتلئة بالعنب، تُنادي بأعلى صوتها تُقنع المارّة بطعم الثمر عندما يكون أسود.

تقدّم من الطفلة يعتذر لها.

«ماذا يفيدني اعتذارك»، قالت تجمع الثمار تبكي.

«لا شيء، لا أستطيع ردّها كما كانت ولا أستطيع دفع ثمنها»، قال يُطأطئ رأسه يُحاول يُخفي احمرار وجهه وخجله.

«ولكنّها الثمار لا أحد يشتريها الآن... ولا أستطيع أكلها»، قالت الفتاة تنظر إلى العنب بين يديها.

ذلك كان أوّل لقاء ما بيننا. أدعى أحمد الأحمدي، شمالي المنشأ، من أصول لحيانية.

تقدّمتُ نحو الفتاة أدفع ثمن الثمار ضعفين، أهدّئ خاطرها فيهدأ.

لم يهدأ.

«لا يستحق الأمر، والفتاة لا تعنيها الثمار، بل ثمنه تُقايضه بما يسدّ جوعها وأهلها».

لم يهدأ.

«ولكنّها الفتاة... أنظر إليها، فرحة كما لم تكن في حياتها، أم أنّ الأمر ليس العنب، ليس الفتاة ولا أهلها؟».

«لا أعلم»، أجابني.

سألته إن كان يرغب يأكل أو يشرب.

قال إنّه لم يقترب من الطعام يومين.

لم أفهم ماذا يقصد، هل يرغب يأكل أم أنّه مُمسك عن الطعام منذ يومين. قلتُ أسأله إن كان يرغب يأكل شيئاً دون غيره.

«لا أعلم ماذا يحدث»، قال بعد ساعة.

جلستُ بجانبه.

«رأيت قبل يومين حلماً رؤيا»، أكمل ودموعه لا تتوقّف تتساقط، « كما دورة الفصول يومين كاملين كان الحلم يعود على نفسه، يُكرّر أحداثه، ينسخها مرّة تلو المرّة صورة بعد صورة.

مُرغماً كنت أرى الصور ولم يكن من سبيل للتّخلص منها، تتدافع تُحيطني تُخليني من كلّ شيء سواها.

لا شُخوص في الحلم، لا زمن لا مكان.

رأيتُ أوّل الحروف يقف وأمامه حرفان مثله، ينظر يُحاول يرى أيّاً منهما مثيله. أيّاً صورته. ينظر إلى الألِف جهة اليمين ينظر إلى الألِف جهة اليسار... لا فارق بينهما.

يُعاود النظر يدقّق في انحناء الهمزة، بُعدها عن الخطّ تحتها، طوله... لا فارق بينهما. ألِفان مُتماثلان ويتطابقان معه.

فَزَع أصابه، كيف يقضي حياته ولا يقين عنده أيّ منهما حقيقته. أوّل الحروف هو. الواحد. الألِف.

كيف يسلك، كيف يخطو خطواته وسيره؟

من أين يعلم إن كان يقترب أم أنّه يبتعد عن أناه داخله؟

كيف يُدرك نفسه ويمتلك قدره؟

ثمّ لا أعرف كيف، بعد أن يكون الألف قد امتلكه القلق حدّ الغثيان ويكون قد قذف داخله، تتبدّل حالته ويبدأ يسخر من نفسه، من الحقيقة وممّن يبحث عنها. فماذا يهمّ أيّ منهما مثيله، أيّ صورته وما هي حقيقته، وماذا سيجني إن أدرك حقيقة حقيقته، هل بهذا تتغيّر دورة الحياة وتبدأ الجبال تسير...

وفجأة يبدأ الألف من جديد ينظر إلى الألِف جهة اليمين إلى الألِف جهة اليسار، يتساءل عن الحقيقة وعن يقينه.

يُعاود النظر يدقّق في انحناء الهمزة، بُعدها عن الخطّ تحتها، طوله.

ويبدأ الفزع يملؤه من جديد والقلق»، قال الصالح يَنظر إلى الفتاة يرى كيف تجمع ما يصلح من الثمر تصنّفه، بعضه في سلّتها بعضه تأكله.

«من هو الألف»، تساءل الصالح بعد ساعتين من الزمن، «من يكون، ولماذا جاءني في المنام؟

أم أنّي أنا الألف؟».

لم أعرف ماذا أجيبه، كيف أقول أجعله يهدأ. كان وجهه يملؤه الفزع والقلق، ينظر كما أعمى إلى الفراغ. لم أسأله ثانية عن أوّل الحروف ومتى كان الحلم. خفتُ يُجيب أتوه أكثر. قُلتُ أقول كلمات تقول ولا تقول، قد تُؤثّر فيه تجعله يهدأ ولا تشي بما أنا فيه.

«يأخذ الإنسان خياره والطرق»، بدأتُ أقول له، «بين السبيلين مسالك لا يعتقد الإنسان بوجودها لا يعلم عنها. لا يراها.

يوماً يُقاوم قدره ويوماً يُحاول يقترب منه...

يوماً يقترب من ملذّاته ريثما يكون ويُدرك طريقه يأخذه.

ويوماً يبتعد عنها يركض لا يعلم أين غايته.

يلهث لا يرى طريقه لا سيره.

يتعثّر.

يُحاول يبتعد عن شهواته. يلتصق بها أكثر.

يُقاومها. ينغمس أكثر.

لا يرى غير الصور من حوله، يلتقطها يَدخلها يُحوّلها حياته.

حقيقته».

«هل حقاً ذهب المُسنّ إلى موته؟»، تساءل الصالح كأنّه لم يتوقّف عن حديثه، فأدركتُ أنّه لم يكن يسأل ولا سمع ما كُنتُ أقوله، «هل حقاً رأيته يُراوغ التربة يدفن نفسه؟ والرجل وزوجته... والحمار؟».

خفتُ يمسّه الجنون ويقتله الجند، وقد يتحوّل بقدرة قادر إلى عبد غلام إن تركته، فكان عليّ إقناعه بأنّ المكان غير آمن، وأنّه من أجل سلامته عليه أن يجد مكاناً ينام فيه رغم أن الليل لم يكن قد جاء بعد، ولكنّه النوم في العادة نجاة للإنسان من نفسه ومن غيره.

فيما كُنتُ أفكّر ماذا أفعل معه، رأيتُ شاباً في الخامسة عشرة من عمره، يُلقّب بالتياح نسبة إلى تمايل مشيته، كُنتُ أعلم أنّه يسكن في بيت شيخ صاحب طريق. قُلتُ للتّياح لعلّ الشيخ يستطيع يُقدم العون له.

«ليس من الممكن أدعوه يقضي ليلته معي كما كنتُ أحبّ أن أفعل»، قال التياح، «لا أملك بيتاً ولا حتّى غرفة تتّسع سريراً...».

«أعلم»، قلت له.

«أنام في بيت شيخ وجدني أجلس أمام بيته أحاول أحمي جسدي من المطر»، أكمل التياح يقول وكأنّي لم أقل له"إنّي أعرفه وأعرف الشيخ الذي آواه، «فدعاني أقضي فصل الشتاء عنده، ومنذ ذلك الحين مضى من الوقت شتاءان وصيف ولم أغادر بيته. لو كان طفلاً أو أصغر سناً كنتُ سأدعوه من دون تردّد وحتى من دون أن أسأل الشيخ مالك البيت... فزوجة الشيخ صغيرة السنّ جميلة، وابنتاه ناضجتان حدّ النكاح.

ليس من المُمكن أدعوه وليس من المُمكن أتركه وحده ينام، والشيخ ينتظر عودتي.

ماذا أفعل؟».

قضى التياح الليل بأكمله معنا، يجلس بجانبه، كأنه أخوه أو أحد أقربائه، تارة يحدّثنا عن وجه زوجة الشيخ وأخرى عن جسد بكره، «جميلة في الثالثة عشرة من عُمرها...»، قال يصفها، «نحيفة الجسد كما أمّها سمراء، طويلة العنق وشعرها بلون الخرّوب عند نضجه، بُنيّة العينين تنظر إليكَ ترى داخلك. تخجل أمامها.

لا أجرؤ أكلّمها، لا أجرؤ أنظر إليها ولا حتى أتواجد أين تكون، وليس من المُمكن أن أحدّث أباها عن رغبتي بزواجها... مُعدومٌ أنا لا أملك سوى جسدي، يتيم وحيد لا تاريخ يمتدّ خلفي لا حاضر ألجأ إليه، لهذا أكتف بسماع صوتها ورؤيتها»، قال وتوقّف عن الحديث، قام من مكانه، ابتعد عنّا قدر ذراعين أو أكثر بقليل، ووقف خلف حاوية يبول، «وكان يوماً عدتُ إلى البيت في موعد غير موعدي»، أكمل من خلف الحاوية يُحدثنا عن رغباته وحبيبته، «دخلتُ البيت ولا أعلم كيف وجدتُ نفسي أمام غُرفة نومها. مُغلقة كانت. وقفتُ ساكناً كما تمثال حجر، أنظر إلى باب الغرفة أحاول أسمع ما يدور خلفه. لم أتمكّن من سماع ما كانت تقول لأمّها. اقتربتُ من الباب أكثر،

فسمعتها تحدّث أمّها عن ثيابها وأشياء أخرى... خرجت من البيت أسترق النظر من نافذة مُطلّة على الحديقة، تسلقتُ شجرة نبتت من تلقائها هناك، وجلست بين أغصانها أنظر إليها. كانت تخلع ثيابها.

جميلة كما أزرق نيسان كانت»، قال وقد عاد يجلس بيني وبين الصالح، «أغمضتُ عينيّ خجلاً من فعلي، كفّي على وجهي وعيناي، أحاول أخبئ نفسي من نفسي. غادرتُ مكاني أستغفر الله لعلّه يغفر ذنبي...

الشيخ أبوها رجل فاضل ويوم لم يفعل ما يسيء لغيره، يوماً لم يفعل. فكيف أقوم بأذيّته، كيف وهو من أدخلني بيته، وبدأتُ أصرخ على نفسي: كيف تفعل وهو من آواكَ وسدّ جوعكَ، كيف ولولاه لكنت اليوم تجلس أمام المساجد تستعطي الصدقات.

لولاه لكنت اليوم غُلاماً تمشي على أربع...

غادرتُ البيت أمشي هائماً على وجهي، لا أسمع لا أرى أمامي، أبكي أكيل الشتائم على نفسي وأهلي: مَن كان أبوك مَن أمّكَ، من أين أتيتَ وهذا السوء يملؤكَ. لعنَكَ الله وأقرباءك، لعنكَ الله وأمثالكَ...

الله لا غيركَ أستغفركَ، الله ليس سواك إلّا أنت، الله لا أعلم كيف الوسواس دخل نفسي وكتابك لا يُفارقني، كلماتك لا تُفارق لساني...

قضيتُ تلك الليلة وثلاثاً من بعدها أبكي، أصلّي، أستدعي ربّ العباد يغفر ذنوب الناس أجمعين وذنوبي.

لم أقصد وما كنتُ لأفعل، في اليوم الثالث بدأتُ أقول أحاول أهدأ.

بعد أسبوعين وجدتُ نفسي في الحديقة أنتظرها تخلع ثيابها... سأتزوّجها، قلتُ لنفسي، سيأتي اليوم وتكون ملكي وأراها كما الآن عارية... بين يدي تحت جسدي. فلماذا لا أراها الآن، لماذا ليس الآن وأنا في حاجة لرؤيتها؟

ستكون زوجي والزوج لزوجها متى يرغبها... هي ملكه قبل ولادتها، قبل ولادة أمّها وقبل أن يولد جدّها، ملكه قبل خروج آدم من الجنّة بل وقبل أن يكون آدم آدم.

أم أنّي مخطئ؟».

لم ينتظر التياح إجابة لسؤاله وأكمل يُحدّثنا عن تجربته بين أغصان الشجرة وماذا يفعل مع نفسه وهو يُشاهد عري حبيبته، وكيف يُداعب انتصابه عندما تكون نافذة الغرفة مُغلقة.

«عندما الإنسان يجلس بين أغصان شجرة يُداعب انتصابه»، قال التياح عند الصباح، «يُحاول ألا ينغرز شيء في مؤخّرته، لا يأبه إن كانت فتاته أمامه أم جدّته. المهم شيء يُثير غريزته ولو كلب ينكح كلباً أو حجراً».

4

مع بزوغ الشمس، تركنا التياح وعاد إلى البيت، لا يعرف كيف يفسّر للشّيخ غيابه... ليس أنّه قام بما يُغضب الخالق، ليس أنّ سبب غيابه لم يكن كافياً للشّيخ، غير أنّه ليس ابناً من أبنائه ولا عاش زمناً طويلاً في بيته، فقد لا يُصدّق الشيخ قصّته ولا أنّه بمثل هذا الحسّ بالعطف.

«لا الشيخ يَصدّق أنّي بمثل هذا الحسّ، ولا أنا»، قال التياح يُغادرنا.

أخذ التياح طريقاً جانبياً يلتف حول المدينة طويلاً، على مهله كان يسير يفكّر، يتساءل عن سرّ بقائه طوال الليل وهو لا يعرف الصالح. «قصّة الصالح لن يصدّقها الشيخ ولا غيره»، قال، «وإن قصصتها ستأخذه الظنون وسيُخرجني الشيخ من بيته كما أدخلني. لعلي أقصّ على الشيخ قصّة فتاة يتيمة، غَضِبَ الخليفة على جدّها فقتله وقتل أبويها وجميع أقاربها، وإن سألني الشيخ من تكون الفتاة، أقول لا أعلم... إذ أنّها الفتاة صغيرة لا تميّز بين الذئب والشاة ولا تعلم شيئاً عن الحياة، وإن سألني أين وجدتها، أقول كانت تجلس بين القمامة كما قطة، تبحث عن شيء تأكله، تبكي من شدّة جوعها لا تقوى على الحركة... فاضطررت لشراء ما يسدّ ولو شيئاً من جوعها، وكان عليّ أن أبقى معها حتّى أطمئنّ عليها.

وإن سألني أين أخذتها وأين تركتها وهي لا تميّز بين الذئب والشاة، أقول تركتها بين القبور مع امرأة كانت تبكي زوجها وابنها.

أحد لا يترك طفلة مع أرملة ثكلى، فكر التياح بينه وبينه، قد يكون من الأفضل لو أقول تركتها مع عجوز من أقاربها، أو عجوز صديقة لجدّتها... وحيدة تبحث عمّن تأويه ويكون عوناً لها، والفتاة تحتاج لمن يعتني بها... وإن سألني الشيخ من أين أعلم أنّ العجوز لن تستغلّ الطفلة وإن كانت صديقة جدّتها، أقول إنّي اضطررت أن أترك الفتاة مع العجوز رغم هواجسي وخوفي، وإنّي لم أر من المناسب أن آتي بالفتاة إلى البيت دون سؤال أهله. ولكنّه الشيخ سيغضب... فكيف من الممكن للشّيخ أن لا يُدخل فتاة صغيرة السن إلى بيته، وقد أدخل بيته من يشتهي جسد ابنته... قول كهذا سيجعله من دون شكّ يعتقد أنّي ارتكبت الرذيلة.

من الأفضل لو أقول إنّي وجدتُ طفلاً وليس طفلة، ولكن من قال إنّه الإنسان لا يفعل الرذيلة مع الذكور من الأطفال، فبلاط الخليفة مليء بالخصيان والغلمان، والغلمان يدخلون بلاط الخليفة رضّعاً وأطفالاً. ثمّ ليس منذ زمن بعيد سمع الشيخ عمّا حدث مع طفل في السادسة من عمره. مسكين ذلك الطفل، مسكين. ما حدث معه...

في هذا الزمن كلّ شيء يحدث، هذا يلهث خلف امرأة ينكحها وذاك خلف طفل أو حمار.

ماذا أقول للشّيخ؟ كيف أجعله لا يغضب؟ لا أرغب العودة إلى حياة الجوع والتشرّد... ماذا لو قلت إنّ الجُند كانوا يملأون المكان وإنّهم كانوا يبحثون عن شاب يُقال إنّ الخليفة قتل أباه، فاضطررت أن أختبئ إلى أن يتمكّنوا من الشاب وسائر عائلته...

لن يسألني الشيخ من الشاب ولماذا قتل الخليفة أباه، فهو خليفة، والخليفة بإمكانه أن يفعل ما يراه مناسباً ولو للحظة، وأحد لا يعلم لماذا يفرح السيّد ومتى يغضب، ولن يسأل عمّا فعله الشاب وهل

يستحق القتل، فالخليفة ليس من عادته أن يُبقي على من أعدم أباه أو أخاه. وأحد لا يفعل.

من يُبق على أعدائه، لا يعلم متى القدر ينقضّ على حياته، بل وعلى أقربائه وجيرانه، وكلابه وحميره.

كما أنّه بإمكاني أقول إنّي لا أعرف عمر الشاب أو شكله، كلّ ما أعرفه أنّ الخليفة يبحث عنه، أمّا لماذا اختبأتُ وأنا لستُ من أقربائه ولا حتّى جاره، فجميع الشبان يختبئون في مثل هذا الحال.

دخل التياح بيت الشيخ وقد اكتملت تفاصيل القصّة عنده، مُطمئنّاً ليس فقط من جانب الشيخ بل ومن جانب من يُجالسه.

«غريب يسأل عنكَ»، قال الشيخ للتّياح حال دخوله البيت.

نظر التياح أمامه وإذ بالصالح أمامه.

«سمعتُ عن الشيخ أنّ له قدم في الطريق»، قال الصالح.

نظر التياح إلى الصالح لا يعرف إن كان مسروراً لرؤيته أم أنّه مسرور لأن الشيخ سيُحبّه أكثر عندما يعلم أنّه مكث الليل بطوله بجانب غريب.

5

غادر الصالح بيت الشيخ بعد عشر من السنين، يوم رحل الشيخ إلى ربّه، خرج مع المشيّعين يُودّعه ولم يعد، تلك كانت أول مرة يخرج فيها الصالح من بيت الشيخ منذ وصوله... فقد كان الصالح لا يفعل سوى الجلوس بجانب الشيخ، لا يخرج من الغرفة إلا لقضاء حاجته، يوماً يجلس على يمين الشيخ يوماً على يساره، يُصغي لحديثه طوال اليوم، مُغمض العينين صامتاً لا يتفوّه لا يقول، والشيخ، لا يتوقّف عن الحديث كان، تَخرج الكلمات من فمه كأنّما يُوحى إليه أو شيء يقطن داخله يقولها. تتسارع كلماته كانت، تُسابق الزمن كأنّها تخشى ألا تُقال.

يجلسان، يلتصق الواحد منهما بالآخر قدراً لا يسمح لأحد غير الصالح من سماع ما يُقال، عشر سنين، منذ الفجر وحتّى ما بعد المساء، حتّى أنّه الشيخ بدأ لا يستقبل أحداً لا يتحدّث مع غيره. وزوجة الشيخ تجلس أمام باب الغرفة، تمنع ابنتيها أو غيرهما من الدخول أو استراق السمع.

«لماذا الصالح؟»، تساءل التياح يوماً أمام زوجة الشيخ، «لماذا يجلس مع الشيخ يسمع كلماته؟

تعلمين لا أكره الصالح، ولا غيره، ولكنّي أقوم بخدمة الشيخ، أسهر على تلبية حاجاته، منذ الصباح وحتى موعد نومه ويوماً لم أجلس بجانبه».

«لكل ميعاده»، قالت زوجة الشيخ، «وأنت عزيز عليه كما ابنتاه ونفسه».

«كيف ويوماً لم يتحدث معي؟».

«ولكنّه سيفعل»، قالت همساً وكلاهما يعلم أنّ الشيخ لن يفعل.

«لماذا ليس الآن؟»، أكمل يسألها لئلا تشعر بالحرج أمامه، فلولا محبّتها له لما قالت ما تعلم تمام العلم أنّه لن يحدث.

«لا أعلم»، أجابت وقد أدركت مُحاولته.

«متى سيفعل».

«عندما يحين الوقت».

«متى يحين الوقت؟».

«أحد لا يعلم... غير أنّه من الممكن أن أحدّث الشيخ إن كنتَ ترغب»، قالت دون أن تنظر إليه، أمسكت بخرقة داكنة اللون نظيفة وأخذت تُزيل الغبار من حولها.

«لا، لا أريد إزعاجكِ».

«ليس في الأمر مشقّة».

«ولكنّه الشيخ لا يحب الأسئلة».

«لا أعتقد أنّ السؤال سيُزعجه»، قالت زوجة الشيخ تُحاول تنهي الحديث.

«ولكنّ الشيخ ومن معه أمامهما طريق... عليهما يسيران فيها»، وجد التياح نفسه يقول. لا يُراوغ. لا يفتعل الصدق ولا الحزن.

«لا تقلق بمن معه»، قالت زوجة الشيخ بشيء من المرح، تركت الخرقة، اقتربت من التياح ووضعت يدها فوق كتفه، «لا تقلق بمن معه»، قالت ثانية وابتسمت.

طأطأ التياح رأسه، ويُمنى عينيه، كما عادته عندما التوتّر يمتلكه، بدأت ترتجف. «كيف لا أفعل، تعلمين أنّ الصالح يسير إلى غيبه».

«ولكنّه الغيب ينتظر».

«وقد يغيب»، قال ووضع يده على عينه وأخذ يفرك حاجبه.

«لماذا تقلق إن غاب عنه غيبه.».

«لم تسمعيه يتحدّث عن سيره وغيبه، لم تسمعيه يتحدّث عن قدره، وعن مُسنّ رآه في طريقه يذهب إلى حتفه... بيديه المُسنّ كان يحفر يواري جسده، بيديه ودمه تحت أظفاره وضع نهايته. ليس أنّ الصالح لم يُحاول يُثنيه عن طريقه، ولكنّه المُسنّ كان قد فقد نوقه. معنى حياته كما قال».

«ولكنّكَ تتوق لسماع الشيخ يقول كلماته».

«نعم، ولكن غيب الصالح يقترب، سمعته يقول يكاد يكون غيبه أمامه، يكاد يُدرك الطريق إلى النور. وأنا، أنا لا غيب لي ولا قدر».

«ليس مَن لا غيب له».

نظر التياح إلى زوجة الشيخ، أمسك بسرواله الفضفاض ورفعه حتى أعلى خاصرته، «نعم، ولكّنه لا يحثّ السير خلفي كما غيب الصالح، فماذا لعلّه غيبي يكون حتّى يركض خلفي، ماذا لعلّه يكون حتى يمسك بثيابي، ماذا لعلّه يكون حتى أسير نحوه؟

لا أرى سوى فقر وجوع يُلاحقني، ونوم خلف النخيل بين القبور... والجُند يبحثون عمّن يصطادونه في الليل. وكلاب.

تعلمين كم أكره الكلاب، تعلمين كم لا أحبّ صوتها.

والقطط في الليل تنظر إلى فريستها أمقتها.

عتمة الليل ظُلمة. والخريف.

وألوان الربيع زائفة. أو أنّها لغيري.

لا أنتظر غيبي ولا أريده أن يقترب منّي، ولو خطوة واحدة.

ليس من شيء أراه يُلاحقني سوى صور تتمزّق وأحلام تتبعثر، وماض لا تزال أحداثه أمامي.

كنتُ لا أزال صغيراً عندما مات أبي، وأمي تعمل في الحقول كانت، تخرج قبل شروق الشمس وأنا معها، تحرث مع الحرّاثين، تبذر مع الفلاحين وتحزم القشّ طعاماً للدّواب، أمّا وقت الشتاء فكانت تتنقّل بين منازل الأغنياء، يوم في هذا ويوم في ذاك، تطهو الطعام، تغسل أواني المطبخ، تنظّف الأرض وتزيل القذر عن أرجل أعيان قريتنا، تريحهم من تعب النهار وقذارته. ساعة

بأكملها تجلس تزيل القذر عند الأصابع وما بينها. ونساؤهم كنّ ينظرن إليها، يبتسمن، ويطلبن منها أن تزيل القذر أينما تجده، ثم يتركنها مع أزواجهن لتكمل عملها، يأخُذن أطفالهن وأنا معهم. يسرنَ بين أشجار أغصانها كما خلقها ربّها عارية، والسماء بلون الرماد تكون، وغيوم. يُكملنَ يسرنَ حتّى حدود القرية والهضاب. لا صوت للثّعالب هناك. ولا للذّئاب. لا صوت سوى للرّياح عاصفة باردة. نعود لنجد الواحد منهم ينام على ظهره كما قتيل، وأمّي بعيدة عنه تجلس تنتظر عودة النساء، مُنهكة كانت تكون، وجهها أحمر وشعرها منثور فوقه، تُغادر البيت حال وصول النساء مُمسكة بيدي. لا أزال أذكر نظرات النساء إليها، مليئة بالاشمئزاز كانت، كما لو أنّهن ينظرن إلى جرذ ميّت.

في التاسعة من عمري كنتُ حينها.

مع بُلوغي الثانية عشرة من عمري توقّفت أمّي عن اصطحابي معها.

عليكَ أن تجد عملاً يُعلّمك حرفة تأكل منها، قالت يوماً قبل خروجها إلى عملها.

ولكنّكِ تحتاجين من يُرافقكِ يُعينكِ، قلتُ لها، تحتاجين من يجمع القشّ في الحقول أمامكِ.

سأعمل قدر استطاعتي.

والشتاء؟

سأرتّب أمري، فصل الشتاء لا يزال بعيداً، قالت تخرج من البيت، ومن حينها لم أرها. سمعت أنّها تزوجت من معدم مثلها، تركتني وتركت أخوتي وأربعة من أبناء عمومتي، ولا معيل.

تنقّلتُ بين سوق العطّارين وسوق النحاسين ومن ثمّ دخلتُ سوق الحدّادين ومن بعده سوق النجارين. أحد منهم لم يقبل بي عاملاً عنده. قلتُ أعمل بائعاً مُتجوّلاً، لا يحتاج الأمر لأكثر من ثمار أقطفها من البساتين، وبدأتُ أدخل البساتين البعيدة عن المنازل والطرق، أجمع الثمار في الليل وأبيعها في النهار، يوماً أجمع بُرتقالاً يوماً ليموناً. سنة بأكملها. كان الأمر سهلاً والحياة لا بأس بها، وأصحاب البساتين لا يتضرّرون، ليس كثيراً على كل حال، فالأشجار كانت مُثمرة أكثر مما كانت تحتمل أغصانها، وكنت أدعو الله أن يُكثّر من رزقهم تعويضاً عمّا كنت أقطفه من حقولهم، كنتُ أدعوه يُسهّل أمرهم ويُزيل العقبات من طريقهم كما أزالها من طريقي، شاكراً إيّاه على فضله ونعمته.

نعمة الله في كل مكان. ليس على الإنسان سوى أن ينظر حوله ليجدها، ليس عليه سوى أن يمدّ يده يمسكها يأخذها، فضل الله على عباده كثير، نعمته لا حدّ لها... سُبحانه الرب في مكانه.

الواحد الأحد لا يخلق مخلوقاً إلا ورزقه معه.

أصحاب البساتين، بعد سنة من الشح المحمود، نعمة الوهّاب، بدأ كل منهم يحرس وكلابه أشجاره، قلتُ شدّة وسوف تزول، فليس من سبب يجعلهم يحرسون أغصاناً ولو كانت مُثمرة، خصوصاً وأنّ لا أحد كان يقترب منها غيري، وبضعة فتيان مثلي. وأحد منّا لم يقطف من الثمار سوى حاجته. غير أنّ أصحاب البساتين لم يتوقّفوا عن الحراسة ولا فارقوا البساتين. لا ليلاً ولا نهاراً. فوجدتُ نفسي بلا عمل وليس ما يسدّ جوع إخوتي وأبناء عمّي، فكان عليّ أن أدخل البساتين القريبة من المنازل والطرق.

الجوع لا أحد يستطيع يُقاومه، لا أحد...».

نظرت إليه.

«عفوكِ، لم أقصدكِ، ولا الشيخ»، قال التياح وقد أمسك بسرواله يرفعه ثانية، «تعلمين ما كنتُ لأقصد وليس من المُمكن أن أفعل، تعلمين أنّكِ كما أمّي، تماماً مثلها، حتّى أنّكِ بمثل طولها ولونها.

كان الجوع يقتلني ولم يكن بإمكاني أن أقاومه، وإخوتي وأبناء عمي أطفالاً كانوا، حتى الخبز لم يكن في بيتنا، فكان عليّ الدخول إلى البساتين القريبة من المنازل والطرق ولو أنّها كانت لعائلات فقيرة مُعدمة».

«مخافة الله والإيمان بحكمته... فوق كل شيء، ولا بأس إن سرق الإنسان ليسد جوعه»، قالت زوجة الشيخ تغسل وعاءً نُحاسياً نتن الرائحة كما ماء آسن، كان الشيخ قد اشتراه من رجل قال إن الوعاء إرث عن جدّه.

«كنتُ أرغب لو أنّي ما فعلتُ، كنتُ أرغب لو أنّي لم أسرق أو أنّ البساتين ليست لمُعدمين مثلي، غير أنّي لم أجد من يقبل بي ولو غُلاماً يقضي له حاجاته، فلم يكن أمامي سوى البساتين.

سبعة كنّا وأنا أكبرهم.

كان عليّ أن أقطف من الثمار ما يكفي ثلاثتنا وأربعة أبناء عمّي، أطفالاً كانوا، وحالهم مثل حالنا، ولم يكن من الممكن أن أتركهم يموتون جوعاً. كنتُ أطوف الليل بأكمله، أنتظر حتى ينام الجند والحرس، وتكون الكلاب قد أخذها التعب، فأبدأ أطوف، أتنقّل من بستان لآخر، ليس من بستان واحد، ليس من اثنين ليس من خمسة. أنتقي وأجمع ما يكفي مقايضته أو بيعه. ثلاثة أشهر. حتى كان يوم ورآني رجل أدخل أحد البساتين. ليس من أصحاب البساتين كان. ليس من الجند ولا مُخبر. ليس من المشرّدين ولا هو من قطّاع الطرق. لا تبدو عليه هيئة الأغنياء ولا الفقراء. ملابسه بيضاء. طويل القامة قوي البُنية. ليس تماماً أشيب. حاد الملامح غريب الطباع.

دخل البستان خلفي، ومعه ثلاث قطط سوداء، صغيرة كأنّما ولدت لتوّها، مسّد رؤوسها ثم وضعها فوق حجر مُسطح، وأحضر حجراً مثله ودقّ رؤوسها حتى سحقها وتناثر دمها، ثم بدأ يُصنّف الثمار التي أقطفها ينتقي أفضلها، يمسكها بيده الملطخة بالدماء، يفركها بثيابه، ويضعها تحت ثمار سقطت من تلقاء نفسها، ثمّ يُخرجها يأكلها. طوال الليل وأنا أقطف الثمار وطوال الليل وهو ينتقي الثمر، ويلحس أصابعه المدبوغة بالدم مع كل ثمرة يأكلها... حتى طلوع الشمس.

خفتُ أتوقّف يقتلني.

في الليلة التي تلتها وجدته يجلس ينتظرني وثلاث قطط بجانبه. رائحة النتن كانت تملأ المكان، كما قيئ دابّة. سحق قطتين وطلب منّي أن أسحق الثالثة. سحقتها.

في اليوم الرابع انتظرته حتى أتى. في اليوم الخامس لم يأت، فجمعتُ حاجته من الثمار وجلست أنتظر قدومه أسبوعين.

عاد بعد أن كدتُ أنسى أمره، غير أنّه بدل أن يأتي بقطط أتى بجراء، بيضاء بلون الثلج كانت، أكبر حجماً من القطط، وبدل أن يأكل الثمار الطازجة بدأ يدوس فوقها، ينظر إلى عُصارتها ويتفوّه

بكلمات لا سبيل لفهمها. بعد أن أكل وشبع قام ودق رأس أحد الجراء بكعب قدمه، وترك لي مهمة تهشيم الجروين الآخرين.

لم أعترض ولم أجرؤ أسأله لماذا يقتل القطط والكلاب ولماذا يدوس فوق ثمار طازجة ويأكل ثماراً تملؤها الديدان، تلك التي تنهش الموت.

في الليلة التي تلتها وجدته يجلس ينتظرني وثلاثة جراء بيضاء وكومة من الثمار الطازجة بجانبه، فبدأتُ أجمع الثمار المليئة بالعفن أضعها أمامه، ينتقي أسوأها يأكلها وما تبقّى يضعها فوق بعضها يدوس فوقها حتى تخرج عصارتها، ثم جلس يأكل وينظر إلي وأنا أهشم رؤوس الجراء الثلاثة.

في اليوم الخامس لم يأت.

عاد بعد أسبوعين أو أكثر. أشار إلي بأن أجمع الثمر الطازج كومة واحدة مع الثمر المعطوب، وضع الجراء الثلاثة فوق الثمر ثم بدأ يضرب بقدميه فوقها حتى خرج دمها من فمها وعيونها، وتناثر فوق عصارة الثمر. مزج عصارة الثمر مع دم الجراء وأشلائها، وجلس يأكل.

في الليلة التي تلتها وجدته يجلس ينتظرني ومزيج من سائل أحمر وعصارة ثمر أمامه. جلستُ بجانبه. خمسة أيّام. ليلة تلو الليلة أجلس بجانبه، ليلة تلو الليلة وحتى بزوغ الفجر أمضغ المزيج معه. ليس رغماً عنّي. ليس برغبتي.

كنتُ أصل المكان وطعم المزيج في فمي. كريهاً كما لم أتذوّق مثله كان. كما الحياة. بل أكثر. أجلس بجانبه وأبدأ، وهو معي يأكل. بتلذّذ شديد كان يأكل، يمضغ المزيج، يبقيه في فمه مدّة حتى يأخذ كلّ طعمه ثم يبتلعه. وأنا مثله كنتُ أحاول أن أفعل.

أبداً لم أنجح أتلذّذ مثله.

الحياة لحظة ليس بوسعه الإنسان أن يمسكها، قال لي الرجل وهو يمضغ المزيج كما يمضغ الكلب قيئه، ليس بإمكانه سوى الوقوف على حوافها ينظر إليها يتحسّسها، هي لحظة اليقين المضطّرب. العلم الجهل. أغوار الظُلمة. ثنايا العتمة والنور. كما عند الشواطئ حيث الماء والرمال. يلتقي الإنسان مع ذاته ولا يراها. تاريخه غياب. والأيّام تتراكم من تلقائها أمامه كما غُبار، كما حصا يرتفع هضاباً.

ليس بإمكانه الإنسان أن يفصل بين الحصى والحصى. ولا لونها. تُمسك بها، تلامس حدودها تُمرّر يديك بينها. وأصابعك حيث نتوؤها عند تحدّبها تُدرك الاختلاف بينها.

لا تراه.

تُمعن النظر. ضباباً ترى. أبيض لا لون غيره. كما الثلج يمتدّ صحراء. كما رمال صفراء. لا هضاب ولا أشجار. لا أزرق لا أخضر».

نظرت زوجة الشيخ إلى التياح تستفهم القصد من أقوال الرجل.

«ليس من حكمة ولا حق، أعتقد أنّه قصد شيئاً من هذا القبيل».

«وأنتَ، هل تؤمن بقوله؟».

«لا أعلم»، أجابها التياح.

رغبت زوجة الشيخ لو تمسك بفم التياح تُغلقه، لو تمسك بعصا تضربه وفي غُرفة مُظلمة تسجنه طوال حياته... أو تحت التراب عميقاً في الأرض تدفنه.

«لا حكمة ولا حق»، ردّدت بينها وبينها وبدأت تدور حول نفسها، تارة تمسك بالوعاء تارة بمنديل رأسها، «في بيت الشيخ يسكن من لا يُؤمن بالحقّ، في بيته يسكن من يتساءل عن حكمة الرب العزيز».

رفعت يدها، ولولا أنّها استغفرت ربّها، كانت ستهوي بكفّها على وجهه تهشّمه، أبقت كفّها في الهواء وخرجت، وكما ناقة فقدت ابنها كانت ترتطم بكل شيء يُصادفها.

«الله لا اله إلا أنت اغفر لنا.

من يتساءل عن حكمة الخالق في خلقه، عن حكمة العليّ في رغبته؟

هل أخرجه من البيت أم أدع الشيخ يفعل؟

ربّما الشيخ يعطف عليه... وقد يكون يعرف تاريخه، ربّما يعلم وله أسبابه. ولكن ماذا لعلّها تكون الأسباب؟ هل يرغب تقويمه؟ لا أعتقد.

من لا يعرف الحقّ، لا يُقوّم.

من يُشكّك بحُكم الخالق وحكمته لا يستقيم. أليس هذا ما يقوله الشيخ؟

إما أن يكون الإنسان في هذا الجانب وإما يقف عند ذاك، إما أن يؤمن بالواحد القيّوم وإما يكفر، مخافة الله واحدة. عصيانه واحد. وأحد لا يستطيع يراوغ أمام ربّه.

قد يكون الله أراده يسكن في بيتنا. من يعلم. ربّما الله أراد أن يعوّضه، وأن يكشف أمامه حياة يملؤها الإيمان بحكمة الخالق وبحكمه.

كان يُرافق أمّه ليس خوفاً عليها، ليس قلقاً عليها، بل ليُمكّن الرجال منها ولا تُثار الشكوك حولها، ولا بأس بهذا... فالجوع عدو الإنسان، والله التواب وقد خلق الجوع والنقصان، فهو العالم بجبلة الإنسان وضعفه أمام حاجاته.

كل شيء إلا الكفر والظن، إلا الكفر والظن.

خروجه من البيت لا يُغضب أحداً ولا الله. كيف الله يغضب من زوجة تُحاول تحمي زوجها، مولاها، من الكفر بالله ومن شرّ الظن؟ كيف يغضب ولا أحاول سوى إبعاد الخطر عن بيت طاهر بناه الشيخ بعد كد وتعب. ليس من إنسان لا يُحاول، فكيف أنا زوجة الشيخ لا أفعل، عليه اليوم أن يخرج من البيت ولا تعنيني آلامه ولا تاريخ أمّه.

لستُ من حدّد له حياته. ليس بوسعي سوى إخراجه من البيت ولو كان الثمن موته، وقد تكون هذه رغبة الرب. أحد لا يعلم».

في صباح اليوم التالي كان التياح يجلس حيث وجده الشيخ.

6

كنتُ في طريقي إلى السوق كعادتي كل يوم، عندما رأيت التياح يجلس بجانب حاوية مليئة بالقمامة والجرذان. «ماذا تفعل هنا؟» سألته، «لماذا تجلس في هذا المكان كما لو أنّ لا بيت لك؟».

نظر التياح إليّ وأدار وجهه عنّي.

«ألا تذكرني، أنا أحمد الأحمدي، أنا مَن قضيت معك ليلة بأكملها قبل سنتين أو ثلاث، وقصصت عليّ قصّة محبوبتك وكيف كنت تفعل حتى تراها».

«ذلك كان قبل ثلاث من السنين، وتُلقّب بالثابت لثبات قدمك خلف خطوات عليّ صلوات الله عليه»، قال التياح وجسده يرتجف، «ولكني لا أرى كيف بإمكانك تساعدني».

«قد لا أستطيع مساعدتك، وقد أستطيع».

«كان عليّ أن أكذب عليها،» بدأ يُحدّثني، «كان عليّ ألا أقول أمامها الصدق ولا عن أمّي، ظننتُ بإمكاني أفعل، ظننتها ستُدرك حاجتي للحديث أمامها عن تعب الحياة وآلامها، وأمّي ما كانت لتفعل ما فعلت لو كان لها زوج يحميها كما الشيخ، ولا أب كان لها ولا أخ يخفّف قسوة الحياة عنها، وكانت تقضي الليل بأكمله تزيل رائحة الرجال عن جسدها، تُصلي تستغفر ربّها، تدعوه أن يلطف بها أو يعفو عنها. قد يكون زواجها لطفاً من ربّها وعفواً عنها.

ليس الصدق زوجة الشيخ كانت ترغب، ولا الحقيقة، وهي يوماً لم تتوقّف عن تعداد الخصال، يوماً لم تتوقّف عن وصف جمال الحقيقة وقول الحقّ. الحقيقة أسمى من الحياة كان قولها المأثور، وعندما قلت الحقيقة أمامها، لا تستطيع الحياة في بيت الشيخ، قالت، الحقيقة أشدّ قسوة مِن أن تقال أحياناً تكون.

الحياة لا تحتمل الصدق، كان عليها أن تقول.

كان بإمكاني ألا أفعل، كان بإمكاني أقصّ عليها قصصاً تجعلها تحبّني أكثر، وكنت سأبقى جميلاً في نظرها، غير أنّي يوماً لم أقل سوى الصدق، يوماً لم أكذب عليها ويوماً لم أشكّ في قولها، فقلتُ لها الحقيقة وها أنت ترى حالي.

كيف النساء يسلكن، كيف يفعلن عندما الحياة تكون كما كانت عند أمّي. كنّ سيلعقن أعضاء الرجال كما القطط تفعل مع أطفالها. صيفاً وشتاء. وكنّ سيبعن خلفهنّ للكلاب.

يبدو أنهنّ النساء لا يُدركن تعب النساء ولا الشقاء. أحد لا يُدرك الشقاء سوى من يعيشه. مَن لا يختبر الشقاء، مَن حياته لا يقبض عليها الفقر ولا يربض فوقها الجوع، يمسك بالنزاهة كما مُحارب يمسك بسيفه. أجمعهم الناس أتقياء قبل دخول التجربة، أجمعهم مُنزّهين عندما الحياة لا تجثو فوق أجسادهم شقاء.

كنتُ أظنّها تحنو عليّ، وأنا ما كنتُ سأنظر إلى بكرها لولا عشقي لها. لو أنّي كما تعتقد كنتُ سأنظر بين فخذي حانية، جارتها، وهي تغسل ثيابها. أبداً لم أفعل، وهي أمامي لم تُبال ولم تحذر،

كنتُ أتجنّب النظر إليها وفخذاها أمامي، وصدرها كان بإمكاني أتحسّسه بنظري وكنتُ أستطيع أمدّ يدي.

وزوجة الشيخ لم تُعر الأمر اهتماماً ولا تساءلت.

كانت حانية تُباعد رجليها وتُكمل حديثها مع زوجة الشيخ وكأنها لا ترى ولا تلاحظ مروري، تكشف بحركة تلقائية عن فخذيها، تختلس النظر تتفحّص ردود فعلي... لا أنظر.

لعوباً كانت حانية.

ليس أنّها لم تكن جميلة، غير أنّي في ذلك الوقت كنتُ مُغرماً ببكر الشيخ ولا أرى غيرها، وهي كانت قد بدأت تراني. لو أنّي كما تعتقد زوجة الشيخ كنتُ أتزوّج ابنتها وأنام فوق جارتها حانية. كما الكلاب.

كانت حانية تكشف عن فخذيها ولا أنظر. ترفع صوتها. تقوم تغادر زوجة الشيخ لعلّي ألحق بها. لا أفعل. تعود. تكمل حديثها تختلس النظر. أنظر إليها أبتسم. تقوم ثانية. لا ألحق بها. تعود. وزوجة الشيخ تُكمل حديثها وكأنّ شيئاً لم يحدث رغم أن الأمر كان واضحاً كما ترى الآن هذه الجرذان.

ذات يوم، كنتُ أجلس تحت شجرة خرّوب يزيد عمرها عن المائة عام، حول مائدة رباعية الشكل صغيرة، أتناول ثمر الخرّوب احتفالاً بموسمه، عندما جاءت حانية تجلس بجانبي وزوجة الشيخ معها. جلست لا تبعد عنّي، تنظر تجاهي وكأنها لا تنظر إلى شيء بعينه، وكما كانت تفعل في العادة قامت تقصد مكاناً لا يبعد كثيراً تقضي حاجتها. لم ألحق بها. في الحقيقة كنتُ أرغب أفعل، غير أنّي خفتُ زوجة الشيخ تُلاحظ رغبتي فترفض زواجي من بكرها عندما يحين الوقت.

في ذلك اليوم كانت حانية ترتدي الأبيض، وكما الملائكة كانت جميلة جميلة. رغبتُ لو ألامس أبيض ثيابها.

قصدت ذلك المكان مرّات ومرّات... وأنا أجلس كما كومة شعير لا أغادر مكاني، اقتربت منّي عندما زوجة الشيخ لسبب لا أعلمه قامت وغابت أكثر من ساعة. لامست بملابسها ملابسي واقتربت. لم تفعل أكثر. كما لو أنّها كانت تُدرك تأثير الأبيض ورغبتي. اقتربت تلتصق بي وصمتت. لا شيء قالت لا شيء فعلت. وأنا اكتفيت بثيابها تُحيطني.

عادت زوجة الشيخ وكأنّها لتوّها غادرت، أكملت حديثاً كانت قد بدأته قبل ذهابها. لا أذكر الآن ماذا كانت تقول. أذكر أنّها كانت تبتسم رغم أن حانية كان جسدها يلتصق بجسدي.

ليتها ما فعلت، وليتني ما اقتربتُ منها، ولكنّه الإنسان منا، تعلم، أحياناً يفعل ما لا يُدرك عواقبه. التصقتُ بحانية كما لم ألتصق بالشيخ ولا ببكره، التصقتُ بها كما لم يلتصق الشيخ بالصالح. سنة بأكملها. وبدأتُ أبتعدُ عمّن أحببتها ورغبتُ أن أكون معها طوال العمر والحياة، وزوجة الشيخ تبتسم. كما لو أنّها القدر. عليّ أقول إنّ زوجة الشيخ يوماً قالت لا تبتعد، لا تحتمل الحياة كل البعد، ولا تقترب، فالحياة لا تحتمل كل القرب. لم أفهم قصدها».

«قصدت تقول عليكَ الحذر، أقصى الجانبين مُنحدر هاوية».

«سنة بأكملها التصقتُ بحانية كما ظلّها، وهي معي كما لم تكن مع زوجها، تفعل الأشياء كلها كما لو أنها زوجتي، وكما العشيقة مع عشيقها كانت تكون معي. وزانية طريق. على أربع كانت

تتموضع أمامي، أمتلك أمامها وخلفها، وكما الكلاب مع إناثها كنتُ أفعل معها.

وكنّا نُراكم الساعات فوق الساعات نتحدّث، أقول لها وتقول لي كل ما تستطيع قوله. نرتشف شراب العنب تارة وأخرى شراب الفاكهة المجففة، ونُمارس الجنس ونتحدّث. حدّثتني عن أمّها وعن أبيها، عن أطفالها وعن طفولتها، وكيف بدأت تُداعب نفسها. في الثالثة عشرة من عمرها كانت ولم تكن حتى ذلك الحين تعرف شيئاً عن جسدها، قالت إنّها تعرّفت على جسدها مصادفة، ولولا أن يدها لامست صدرها ما كانت لتُدرك مُتعة جسدها، أعادت حركة يدها لتتأكد من شعورها، وانزلقت بأصابعها على بطنها تتفحّص تكتشف أماكن أخرى، غير أنّها لم تتحسّس ما بين فخذيها. لم يخطر ببالها أنّنا نأخذ متعتنا من حيث نبول. لامست بطنها حتى صرّتها، وامتدّت يدها ببطء إلى رقبتها وكتفيها، ثم وقفت أمام مرآة تنظر إلى صدرها ترى كيف ترتعش حلمتاها، عارية وقفت تنظر إلى جسدها ويداها تداعبان نهديها، فسمعت صوت متعتها، وعندها أدركت صوت أمّها عندما كانت تغلّق الأبواب لتختلي بنفسها. وبدأت تنتظر خروج أهلها من البيت لتختلي بجسدها، لترى عريها، قالت إنّها أبداً لم تُداعب نفسها إلا إذا كان البيت خالياً من كل أهلها، حتى من أخيها وهو طفل رضيع. وكان أن حدّثتها صديقة لها عن تجربتها مع نفسها، وعن أنّها تُداعب ما بين فخذيها، وحدّثتها عن رجل بمثل عمر جدّها يداعب صدرها، وعن آخر يفعل معها مثلما رأت الدواب تفعل مع بعضها، غير أنّ حانية في ذلك الوقت لم تجرؤ أن تفعل مثل صديقتها، واكتفت بمخيّلتها، وبدأت تُداعب ما بين فخذيها، وتفعل مع صدرها مثلما كان الرجل يفعل مع صديقتها. كانت ترغب لو أنّ صدرها أصغر. لا أعرف لماذا. ولو أنّها أقل سمرة وأكثر امتلاء وأطول، وقالت إنّها تتمنّى لو أنّها لا تشبه أمّها ولا وُلدت لأبوين مثل أبويها. أخذت طولها من أبيها، ولونها من أمّها. لم أر أبويها ولا سمعتُ عنهما سوى منها، ولو أنّ ما كان من أبيها حدث في بلدة كهذه، لما توقّف الناس عن تداولها حتى يومنا هذا. قالت إن أباها عندما تزوّج أمّها، أعني يوم ذهب يأخذها من بيت أهلها، ذهب لوحده. لا أبوه كان معه ولا أمه ولا أحد من أقاربه. وحده. ماشياً على قدميه لا فرس تركبها زوجته ولا ناقة، لا طبل لا زمر لا غناء ولا أي شيء آخر، كأنه ذاهب لشراء بغل طاعن في السن مريض، فأتى أباها بحمار، حمّلها فوقه كما لو أنّها بضاعة، وأرسلها مع زوجها. الزوجة لزوجها، قال لها، أين يذهب تذهب معه، ولا اعتراض على ما قسمه الله لنا، هذا ما قسمه الله لكِ. فحدّثتها عن أبي وحدّثتها عن أمّي، عن ألمي وعن فرحي، عن طفولتي وعندما وجدتُ نفسي أتسوّل، وكيف يوماً من الأيّام أخذني رجل إلى بيته حتى لا يقتلني الجوع، وكيف آواني وقدّم لي كلّ ما عنده.

مُعدماً كان الرجل. أرمل لا أطفال له، لا أثاث في بيته سوى سرير ومائدة وكرسيّ واحد، شيء من الخُضار ونوع من الحبوب قال إنّه مفيد كما حساء الدجاج. مكثتُ في بيته خمسة شهور أو أكثر بقليل، أنظّف البيت، أطهو ما تيسر وأنام في سريره كما زوجته.

مُرهقاً كان يأتي من عمله، أرمل كان ويحتاج من يدفئ جسده.

أحسن مُعاملتي كما لو كُنت من لحمه ودمه، حتى أنّه كان يأرق في الليل عندما يمسكني المرض، يجلس بجانبي يقصّ عليّ القصص ويُرطّب جبيني كما كانت أمّي تفعل. كان لا ينام حتى أنام. يُحيطني بذراعيه يأخذ حرارة جسدي ومرضي، ولا يُغادرني حتى أستعيد صحّتي ويراني قادراً على تدبير أموري بنفسي.

أمام اهتمامه وكل هذا الحب والقلق، رغبتُ لو أستطيع ردّ ولو شيئاً ضئيلاً من جميله... رجل بمثل عمره أرمل، يعمل طوال النهار وحتى منتصف الليل أحياناً، يعود إلى بيته مُنهك الجسد لا يقوى على السير ولا حتى الوصول إلى السرير. لا أحد ينتظره لا أحد يُدفئ له سريره. ينام كما قتيل.

يئنّ من شدّة إعيائه كان عندما أدركتُ كيف أردّ له جميله... خلعتُ ملابسي واقتربتُ ألتصق بجسده، أزيل تعبه، أخفّف وحدته.

أحاطني بذراعيه ينام.

أبداً لم يفرض نفسه فوق جسدي عليّ أقول، ويوماً لم يَقس فوقي ولا امتلكني رغماً عنّي. لطيفاً كان معي، بوجهه يُلامس وجهي ويقول كلمات جميلات وهو يُداعبني، فأنزلق أداعب انتصابه بفمي، أرطّبه حتّى يلج داخلي دون جهد أو صعوبة.

قالت حانية إنّي كنتُ سأصبح زانية لو ولدتُ أنثى.

يوماً من الأيّام، وأنا مُلتصق بجسدها، أحدّثها أقول لها كم أحبّها، وأنّ الحياة من دونها وحدة قاتلة ولا أستطيع احتمالها، رأيتها تنظر إلى رجل يجلس ليس بعيداً عنّا، تنظر إليه وكأنها لا تنظر إلى شيء بعينه، وكما كانت تفعل معي قامت تقصد ذات المكان تقضي حاجتها. لم يلحق بها. رأيتُ رغبته، غير أنّه لم يفعل، أظنّه رآني، أظنّه أدرك أنّي أراه وأراها.

كانت ترتدي الأبيض، وكما في ذلك اليوم كانت كما الملائكة جميلة جميلة، جلستُ بجانبها أنظر إلى انفعالها وكيف لا شيء تراه حولها، لا شيء يأخذ انتباهها وكأنّها الحياة أسدلت ستائرها تُحيطها، والظلمة سقطت تُخفي كل شيء عداه وعداها.

لامستُ أبيض ثيابها مُدركاً أنّها النهاية.

قصدت حانية ذلك المكان مرّات ومرّات، كما طير لم يأكل أيّاماً، لا يرى الخُبز أمامه يتنقّل يبحث عن فُتات... وأنا أجلس أنظر إليها.

غادرتُ المكان، لم أستطع رؤيتها كمن لم تر رجلاً يعيرها اهتمامه في حياتها، وأنا من لم ير غيرها أمامه، لم أستطع رؤيتها تفعل كل ما بوسعها تجذب انتباهه ينظر إليها، حتى تلتقي ابتسامته وابتسامتها. لم يكن بإمكاني أفعل.

لحقت بي تقول إنّها لم تفعل ولا حتى رأت من كان يجلس قُبالتها، وإنّها لا ترى ولا تستطيع تكون مع غيري، وقالت إنّها الحياة لا قيمة لها سوى معي، وإنّها تفعل ما لم يفعله إنسان حتى تراني، وأقسمت بأمّها وبأعزّ ما عندها. كدت أسحق رأسها ذلك اليوم.

ما كان عليها سوى قول الحقيقة أمامي، وكنتُ سأغفر لها، أحببتها حدّ إدراكي لحاجاتها، بل وحدّ تلبيتي لها. كان من الممكن لها أن تقول إنّه الإنسان يرغب أن يرى كيف غيره يُثار أمامه، كان من المُمكن لها أن تقول إنها النظرات لعبة تُحبّها النساء كما الرجال... أمّا وقد اختارت ألا تقول ما كان منه ومنها، فهي بهذا كانت تنهي ما بيننا.

ربّما لم تكن تعلم، ولكنّها كانت تدرك معنى الضباب في حياتي.

أعلم أنّها أحبّتني كما لم تُحبّ نفسها، وكما لم تكن لأحد كانت معي... وحياتها رسّمتها أمامي من أجلي، ماضيها وحاضرها والمُقبل من الزمن لي، وأعلم أنّها الحياة من دونها كما قلتُ لها. تيه

ظلمة. وحدة لا حدّ لها حولي.

أعلم أنّها الحياة من دونها ليل طويل، غير أنّي لا أستطيع معها.

أتعلم أنّها لو قالت إنّها تُحبّ الرجال وإنّها من دونهم لا تشعر بوجودها، وإنّها ترغب لو أنّهم الرجال أجمعهم يتناوبون فوقها، من أمامها وخلفها، واحدا تلو الآخر يأخذها يمتلكها... كنتُ سأبقى معها.

لا أعلم ماذا تقول عن رجل يلتصق بامرأة تُحدّثه عن رغباتها بالرجال، لا أعلم إن كنتَ ستبقى تسمعني، أم أنكَ ستبصق فوقي وتُغادرني... ولكنّي كنتُ سأبقى معها، وكنتُ سألتصق بها كما لم تفعل هي معي».

«لن أغادرك حتى تُغادرني»، قلتُ له مُبتسماً أهدئه، «ليس في الأرض من خطّ واحد مُستقيم، ولا حكمة واحدة».

«ليس الطهارة ما أبحث عنه ولا النقاء»، قال يُحاول يُفسّر نفسه، «لا وجود لهذا ولا لذاك. أبحثُ عمّن لا يخجل من حقيقته، عمّن لا يخشى يبوح ما بداخله، يكشف عن رغباته، وعن أحلام يومه ونزواته، وصراعاته، أبحثُ عمّن لا يُراوغ أمام نفسه. ولا أمام غيره.

هذا ما حاولتُ أن أكونه أمام زوجة الشيخ ولم يكن لها أن تقبل بالحقيقة. قد أكون جعلتها تتذكّر شيئاً من ماضيها، وقد يكون شيئاً في حاضرها أو شيئاً من أحلام يقظتها. قد أكون ذكّرتها بمخيّلتها ورغباتها.

أليست زوجة الشيخ إنساناً مثلنا، لها نزواتها وحاجاتها؟

أهناك من لم يقم بما يُخالف تعاليم ربّه، أهناك مَن لم يقم بما يُخالف أعرافه، تلك التي يُقاتل في سبيلها؟

أمِن إنسان لم يرتكب الخطيئة ولو قبل نومه في مُخيّلته؟

والناس، تعلم أنّهم لا يأبهون بما تفكّر أو تشعر، يدخلون بيتك، في البداية يمسكهم الخجل كأنما ملائكة، من بعدها يبدأ الواحد منهم يأكل طعامك ويروي عطشه من مائك، لا يسألك، وكأنّ الملك ليس لكَ، وكأنّه وقف للكون وللنّاس أجمعين، ثم يعتلي زوجتك.وزوجتك لا تُمانع، حتى أنها تبدأ تفعل معه ما تمتنع عن فعله معك... ويمتلكها يقسو فوقها، يُؤلمها رغما عنها برغبتها، وتنام وعضوه عند وجهها وفمها، وعندما يغفو توقظه بارتعاد جسدها وشفتيها.

وزوجة الشيخ مثلها مثل سائر الناس لها حاجات، مثلها مثل حانية».

الجزء الخامس

1

خرج الصالح من بيت الشيخ يودعه واتّجه إلى بلد خراب، عند سفح جبل تمتد أمامه السهول كانت. لا زرع فيها. هجرها أمراؤها الواحد تلو الآخر، تاركين أهلها المرة تلو الأخرى، يدافعون عن أنفسهم وهم عزّل وفقراء. كانت المدينة قد تعرّضت للاحتلال مرّات متتاليات، تحوّلت من بعدها إلى خربة لا يقطنها سوى من لا سبيل أمامه للخروج منها. في تلك السنة، كان الدمار بمثل ما كان سنة ثلاث وثلاثين وستمائة يوم سقطت قرطبة، فقد تهدّم حصن المدينة وسورها وجامعها ومعظم أبنيتها، وذُبح مئات من أهلها... وخمسون ألفاً من الناس أنقذوا حياتهم وقد دفعوا ثمنها ذهباً وأشياء أخرى.

كما خراف كانوا يذهبون إلى موتهم، ومن بإمكانه يدفع ثمن بقائه كان يضع قطعاً من الذهب في مخلات حول عنقه، ويتقدّم نحو الجند على أربع كما دابّة حمار، بصمت يقف أمامهم، ساكناً سكون الحرّ في قبو لا نوافذ له، يمدّ عنقه وينتظر، لا يبرح مكانه لا يتحرك ولا يسترجع عنقه إلا إذا أومأ مانح الحياة برأسه، فيُقبّل يده وأصابع قدميه، ويبتعد فرحاً بحياته. أما الفتيان فقد كانوا يتقدمون آملين أن يأخذهم الجند غلماناً تحت أجسادهم أو خصياناً، والنساء كن يستنجدن بأعلى صوتهن، يكشفن عن أردافهنّ وصدورهن.

لم يبق من الذكور سوى المريض والعاجز والمُعاق، ومن الإناث ليس أكثر من مائة، عجائز وزانيات تأكل الديدان أجسادهن، وقيح أبيض يسيل من أجسادهنّ.

دخل المدينة يتّجه إلى سوقها، فوجده خالياً سوى من بعض المشرّدين ينامون على طرفي الطريق، أطفال يقفون بين الركام يتوسّلون بأيد مقطوعة، وجثث تأكل منها الكلاب. لا تجّار لا حرفيون. كان الناس، وقد خلت أيديهم من النقود، يتبادلون البضائع بينهم أينما التقوا، ثلاثة أرطال من القمح مقابل ستّة من العدس وتسعة من دقيق الشعير، رطل من الزيتون مقابل رطلين من التين وثلاثة من التمر، أما سائر أنواع الفاكهة فالرطل مقابل الرطل.

«أين لا سوق لا مدينة»، قال بينه وبينه، وأكمل طريقه يتّجه إلى طرفها الشرقي حيث تهدّمت المباني وتراكمت فوق بعضها، والمدارس ومنازل الأمراء والقصور كانت محروقة.

جلس ينظر إلى السماء يرى غياب الشمس هناك، ونام يُراقب النجوم. والجرذان كانت بأعدادها تركض حوله تبحث عن طعام. سوداء كانت، أو أنّها في الليل بدت سوداء، كبيرة بحجم الأرانب البريّة في فصل الربيع.

«أرافقكَ إن رغبتَ»، سمع صوت صُغرى أخواته كأنّها الآن أمامه، «وأسير خلفكَ كما ظلّكَ أحميكَ، أمامكَ وحولكَ، أزيل عثرات الطريق وتحت أقدامكَ. أجمع أوراق الشجر أصفرها وأخضرها أحرقها أدفئكَ، وصغار الطيور أصطادها طعاما لكَ...

ليس الآن ترحل، طفلي لا يزال رضيعاً».

«والنجوم كنتُ أقطفها والسماء أضيئها»، ردّد قول صُغرى أخواته، «والأرض أجعلها تستوي هضابها وجبالها. ألوّنها. ومن أجلكَ أجعلها بساتين أزهار. وثماراً وزيتوناً».

في صباح اليوم التالي، مع بزوغ الشمس، بدأ يزيل الركام من حوله... والضباب كان يُخفي السهول أمامه والأفق.

مرت سنتان وهو يعمل، والناس من حوله ينظرون إليه يشاهدونه كيف يزيل الركام والركام ينمو من تلقاء نفسه لا ينتهي، وسنة ثالثة وأخرى رابعة مرّت، وهو يزيل الركام والركام يعود في الصباح ويزيد ويرتفع عما كان.

«الأرض تستوي وإن كان تحتها بركان»، يوماً قال لنفسه وبدأ يجمع طوباً يصلح لبناء غُرفة تتّسع سريراً. في تلك الليلة نام فوق الركام رغم الرياح وبرد الشتاء، وفي تلك الليلة سمع في المنام صوت صَموئيلُ يقول لِشاوُلَ: «إيَّاي أرسَلَ الرَبُ لمسحك مَلِكاً على شَعبه إسرائيلَ. والآنَ فاسمَع صَوتَ كَلامِ الرَبِ. هَكذا يَقولُ ربُّ الجُنودِ: إنّي قد افتقدتُ ما عَمِلَ عَمَاليقُ بإسرائيل حين وقَفَ لَهُ في الطريقِ عندَ صُعودِهِ من مِصرَ. فالآنَ اذهب واضرب عَمَاليقَ وحرّموا كلَّ ما لَهُ ولا تَعفُ عَنهم بل اقتُل رجلاً وامرأة، طِفلاً ورَضيعاً، بَقَراً وغَنَماً، جَمَلاً وحِمَاراً».

استيقظ من نومه، قام يمشي يُحاول يُفسّر ما جاءه، «أم أنّه رؤية؟»، تساءل بينه وبينه، «وماذا لعلّه يكون؟ لماذا شَاوُلَ؟ شَاوُلَ لم يفعل ما أمر الرب، فقد عفا عن أجاج ملك العماليق وعن خيار الغنم والبقر والحملان والخراف وعن كل الجيد، وغضب الرب عليه جعله يبحث عن ملك جديد لإسرائيل. داود».

مكث مستيقظاً حتى بزوغ الشمس تقريباً... وريح شمالية بدأت تعصف تضرب المكان.

داود منع أوريّا الحثّي عن زوجته وقد كان يُضاجعها أثناء غيابه، دعاه ليأكل معه ويشرب حتى أسكره، فنام الحثّي مع عبيد سيده داود ولم ينزل إلى بيته يرى زوجته ولم يقربها، ومن بعدها كتب داود رسالة إلى يوآب وأرسلها بيد الحثّي يقول: اجعَلُوا أوريَّا في وَجهِ الحَربِ الشَديدَةِ، وارجعُوا مِن وَرائِهِ حتّى يُضرَبَ وَيَمُوتَ.

أوريّا الحثّي مات وداود اتخذ زوجة الحثّي زوجة له، ومنذ ذلك اليوم لم يَخل الشر من بيت داود، وابنه من زوجة الحثّي مات.

2

كان الصالح ينظر إلى الطوب يتساءل عن رغبة السماء ولماذا الركام لا يطاوعه عندما جاء التياح، ذلك كان بعد أسبوعين تقريباً من سماع الصالح صوت صموئيل يُحدث شَاوُلَ بما جاءه من الرب.

«بإمكانك تُناديني باسمي، حنبل»، قال للصّالح مُمسكاً بسرواله كعادته، «وبإمكانك تُناديني التياح».

نظر الصالح مسروراً لرؤيته لا يعرف ماذا يقول، إذ إنّه لم يكن على علم بأنّ التياح لقب الغلام وليس اسمه. طويل القامة كان، عريض المنكبين أسمر، حليق الوجه طويل الشعر أجعد، وعيناه باردتان كما عيني ثُعبان، يرتدي معطفاً أسود اللون موشحاً بأبيض ومنديلاً أصفر يلفّ عنقه.

«سمعتُ عن رجل يُحاول يُزيل الركام عبثاً»، قال التياح مبتسماً، «فجئتُ أراه. قصّتكَ مع الطوب تتناقل بين الناس كما لو أنّها خيال».

«لا أعلم لماذا شَاوُلَ أتاني، لم أعص ربّي ولم أفعل ما يُغضبه كما شَاوُل فعل. ولا كما داود. والطوب لا يُطاوع رغبتي ولا معصية فعلت، أم أنّ المكان إن ارتفع بناؤه سيكون مكاناً للظّالمين والخطيئة... فكما أنّ شَاوُل لم يكن ليكون من الخاطئين لولا أنه كان ملكاً وأوكله الله معاقبة عماليق، كذلك هذا المكان إن ارتفع سيكون مكاناً للخاطئين.

رأيت صوراً تشبه ما أتاني من قبل، قصصاً عن أوّلين ظّالمين، تُنذر بما لعلّه يكون، كأنّما الماضي يخطو خلفنا، أو أنّنا نخطو خطواته. رأيت المتسوّل عاري الجسد يصرخ، يقف فوق صخرة يُلوّح بيده، يُشير إلى أعلى وإلى أشجار تحترق أمامه، وجمع غفير من حوله وجوههم شاحبة، أجسادهم نحيفة، يتحدّثون لغة لم أسمع مثلها من قبل، وخراف ترعى وخراف تُذبح، وسيوف مُكدّسة فوق بعضها، وحمير وغنم وبقر وكلاب.

بمثل هذا المكان كانوا. أو أنّه يُشبهه. عند سفح جبل تمتدّ أمامه السهول جرداء كأنّما محروقة كان المُتسول يصرخ والجموع من حوله، يردّدون كلماته، يضربون الأرض بأقدامهم، يلوّحون بسيوفهم يصرخون مثلما هو يفعل، وها أنا الآن يأتيني شَاوُل، أراه يقطع رؤوس الأطفال ويُبقي على كل شيء منفعة.

لعلي أترك هذا المكان لعلي أغادره».

«بإمكانك تُناديني باسمي، حنبل»، ردّد ثانية، «وبإمكانك تُناديني التياح».

«أيّهما تُفضّل؟»

«كلاهما واحد إن كنت المنادي».

«أين كنت، ماذا فعلت منذ غادرت بيت الشيخ؟»، تساءل الصالح يرى أطفالاً لم يرهم من قبل، يرتدون ثياباً صغيرة الحجم رثّة، أطرافها ممزّقة، تلتصق بأجسادهم تكاد لا تخفي عوراتهم، ينظرون إلى التياح ويبتعدون.

«لم أغادر بيت الشيخ طواعية كما تعلم، ولم أكن لأفعل».

«ماذا فعلت من أجل قوتك؟»، سأله الصالح مُحاولاً تغيير مجرى الحديث.

«لا شيء محدّد، يوم هنا ويوم هناك... شيء من كلّ شيء»، قال التياح للصّالح واقترب يجلس بجانبه، «زوجة الشيخ قضت بعد الشيخ بثلاثة أشهر».

لم يتمكّن الصالح من إمساك دموعه، حاول يفعل، فانهمرت دموعه غزيرة أكثر، قام من مكانه يتنقّل بين الركام يُشغل نفسه، يُحاول يصدّ صور أمّه، فجاء بكاؤه كما نحيب ثكلى. وضع كفيه على وجهه، أخفى عينيه وشدّ على فمه يكبت صوته لئلا يسمعه التياح أو يرى دموعه.

يومين قبل رحيل أمّه حدّثها الصالح عن غيبه، وعن صوت يسمعه في الليل يحثّه على الرحيل، وعن شخوص تأتيه في منامه تحدّثه عن حياة ستكون له بعيداً بعيداً عنها وعن أخواته.

نظرت أمّه إليه، اقتربت منه تضمّه إليها، وبيديها أحاطت به كما كانت تفعل وهو طفل رضيع، واقتربت بوجهها من وجهه تُلامسه، التصقت به تأخذ رائحة جسده، تبقى معها بعد رحيلها.

كانت تعلم أن موعدها قريب، وكانت لا تدعه يغيب عن نظرها منذ ولادته، فقد وُلد الصالح مُغمض العينين نائماً، نحيل الجسد كما نبتة شعير، لا يبكي لا يصرخ، وأحد ممّن رآه لم يؤمن بأنّه على قيد الحياة. ثلاث سنوات وهو في سرير أمه لا يبرحه، ساكناً كما تمثال حجر.

بعد ثلاث من السنين خرج عن سكونه، وعن صمّه وعن بُكمه، غير أنّها أمّه لم تخرج عن قلقها عليه، واستمرّت تُراقب نموّه وكل حركة من حركاته، بل واستعانت بأربع أخواته لمُتابعة كل صغيرة وكبيرة في حياته. كلّ منهنّ أخذت على نفسها شيئاً في يومه، كُبرى أخواته كان قلقها سير نهاره، ثاني أخواته طعامه وثالثتهنّ ملابسه... صغرى أخواته كانت تقصّ عليه القصص، من يومها وشيئاً من أحلامها.

كانت تبدأ تقصّ عليه القصص قبل أن يستيقظ ويبدأ يومه، تبدأ تحدّثه وهو ما زال ينام، فيختلط صوتها بأصوات وصور من أحلامه، وتمتزج التفاصيل وتتشابك الصور في رأسه، فيستيقظ لا يميّز بين ما جاءه في حلمه وما سمعه من أخته.

حاولت أمّه منع أخته من قصّ القصص عليه، بل ومن الاقتراب من غُرفة نومه وسريره، فامتنع الصالح عن الطعام والشراب، وتراجعت أمّه عن موقفها وأقسمت أخته أنها ستقصّ عليه القصص ساعة بعد استيقاظه، وأن لا تكون قصصها شبيهة بالأحلام.

بعد يومين من تراجع أمه وقسم أخته، جلس الصالح يُحدّث أمّه عن ثلاث قطط سمعها تبكي حظّها، «مرّاً مواء القطط كان، مرّاً كما بكاء أبي يوم وفاة أمّه... حاولتُ أحدّثها أهدّئها، حاولتُ أفعل ما يُخفّف من ألمها. لم أنجح.

أمّاه، لا يزال صوتها يُلاحقني...»، قال الصالح يُحاول يمسك دموعه.

أمّ الصالح، وقد سمعت بكاء الصالح، تأكّدت من ظنونها وأيقنت أنّها ستفقد ابنها إن لم يخرج من ضَياعه والتيه.

«لا يحتاج الصالح لمن يُثير هذيانه»، قالت تصرخ بوجه أخته، «ألا ترين شروده وضياعه، ألا ترينه يقضي يومه يحدّث الأشجار كما لو أنّها إنسان مثلنا، وها هو الآن بدأ يُحدّث صغار القطط

والكلاب.

أخشى يأخذه التيه ويضيع»، قالت مُمسكة بثياب ابنتها تشدّها، تنظر إليها تستجديها، « أخشى يرجع إلى نومه ولا يعود».

«لم أقصد، وما كنتُ لأفعل. تعلمين أنّي ما كنتُ لأفعل، فهو أغلى عليّ من نفسي».

حينها، بكت أمّ الصالح كما لم تبكِ طوال حياتها وأقسمت أخته ثانية أنّها لن تقصّ عليه قصصاً سوى من يومها.

«كلّ ما أطلبه أنّ تتوقّف عن الحديث مع الرمال والصخور، أنّ تتوقّف عن مُخاطبة القطط والطيور»، قالت أمّه تحضنه وتُجفف دموعه بثيابها.

«في الطريق المؤدّية إلى معصرة الزيتون»، أكمل الصالح يقصّ على أمّه يصف آلام القطط كأنّها ما مزّقت ثيابها ولا ضربت أخته، «بين بيت العرجاء وبيت الحانوتي كانت ثلاث القطط متكوّرة فوق بعضها، تحت خرقة من القماش مُتّسخة. لا يتجاوز عمرها الشهر الواحد، بلون الطحين ثلاثتهن، ونقطة سوداء بحجم حبوب القمح بين العينين وأخرى عند طرف الذيل. تموء كانت القطط، تموء من شدّة جوعها وقد قضت أمّهن نحبها. عربة يجرّها بغلان فصل رأسها عن جسدها.

لماذا ربّ الكون خلقهن، لماذا أوجدهن وهو العالم بمصيرهن.

هل كان عليهن يتعذّبن قبل موتهن؟ هل كتب عليهن الشقاء؟ هل هذه هي الحياة؟»، تساءل الصالح يبكي وأمّه تبكي معه، ووضع رأسه بين ثدييها وأغمض عينيه ينام.

«ربّما، ربّما، لا أعلم. لا أحد يعلم»، قالت أمّه تضمّه إليها، «لماذا تأرق لأسئلة لا إجابة لها؟ أنظر حولك، أنظر كم هي الحياة مليئة بالأشياء، وكم من الأشياء تستحق الاهتمام.

ما زلت صغيراً، وأمامك حياة طويلة طويلة.

ابن العرجاء يعمل من أجل قوته وقوت أمّه وأخوته، وأبناء عمومتك يعملون، هذا في التجارة وذاك في الزراعة، منذ نعومة أظفارهم. ليس أنّي أطلب منك أن تفعل ما يفعله ابن العرجاء. لا حاجة بنا لعملك، نعمة الله تفوق حاجتنا كما تعلم، ولا أطلب أن تتمثّل بأبناء عمومتك أو غيرهم، أعلم أنّك لن تفعل ولا أنا أحلم بمثل هذا لكَ».

جميل الوجه كان الصالح، سمرة جسده كما المعادن تحت شمس الظهيرة، لا هو بالنحيل لا بالسمين. مربوع الجسد مرفوع الرأس، يمشي يُنقّل قدميه كما عُقاب، شعره يرتفع ويهبط مع كل خُطوة يخطوها... غير أنّ أمّه كانت ترغب تقول عنه أشياء أخرى، غير تعداد صفات جسده. جمال الوجه ولون البشرة ليست صفات تُعددّها أمّ عن أطفالها الذكور.

كانت ترغب لو أنّه يخرج من هذيانه، لو فقط يتوقّف عن مخاطبة كل ما يجد في طريقه... كم تمنّت لو أنها لا تصدقه.

لا أحد من أهل الصالح غير أمّه وصُغرى أخواته كان يعلم أن الصالح يُخاطب النباتات والطيور، والمسكينة أمّه كانت تقضي الليالي تصلّي إلى ربّها أن يخلّص ابنها من هذا العبء فتتخلّص هي الأخرى من عذابها معه.

وكم تمنّت لو أنّها ما ولدته.

«بإمكانك تتعلّم قصص الأقدمين، بإمكانك تتعلّم تأويل الأحاديث، وحتى أنّه بإمكانك تتلمذ على يد علّامة يُعلّمك عن الداء والدواء. أحد لن يمنع رحيلك. قد تُصبح بمثل علم حجّة الحقّ، الشيخ الرئيس، وقد يكون أمرك كما أمره، فيأتيك من أقاصي الأرض من يسألك عن شفائه. لديك من الملكات ما يمكّنك أن تكون مثله.

ولكن حذار من الخمر والنساء، فما قتل الشيح الرئيس سوى احتساء الخمر والإسراف في معاشرة النساء».

لم يجد الصالح من الكلمات ما يقول لأمّه يجعلها تهدأ وتبتسم، لم يعرف ماذا يقول يجعلها تطمئن عليه وتُحبّ ما يجعله دون غيره...

كم تمنّى لو أنّها تفعل.

ليس أنّه لم يكن يعلم أنّها تأرق له وأنّها تفعل الأشياء كل الأشياء من أجل يومه وغده، كان يعلم أنّها لا تستطيع من دونه بجانبها، ورآها كيف تقاوم وماذا تفعل أمام محاولات أبيه المتكرّرة ليصبح كما سائر الناس، وحتى أنّها يوماً من الأيّام كادت تفعل ما كان سيقلّب التراب تحتها في موتها ويودي بها إلى الجحيم، غير أنّه أبداً لم يشعر أنّها تُحبّه لنفسه، بل لأنّه ابنها وحيدها بين أربع أخواته، ولأنّه صغيرها.

في ذلك اليوم كان في طريقه إلى جدته أم أبيه، يحمل بعض الخُضار المقطوفة لتوّها وشيئاً من الحبوب ونباتات بريّة، جمعتها امرأة مُعدمة تعرف كيف تَقتلع النباتات من أسفل جُذورها وكيف تُحافظ عليها جاقّة خضراء. في الظلّ كانت تضع جذور النباتات حولين كاملين، تُقلّبها تُعرّضها لحرّ الهواء حتّى مُنتصف الليل أو بعده بقليل، ثم تجمعها كومة واحدة، تضعها في وعاء نُحاسيّ وفوقها قطعة من القماش بيضاء، تُخفي الوعاء بين النباتات تحت أشجار الخرّوب حتى اشتداد حر الشمس ورجوع الفلاحين من الحقول... وتبدأ تُقلّبها تُعرّضها للحرّ من جديد.

يوم لم تأخذ المرأة مُقابل جذورها، يوم لم تطلب ويوم لم توافق تأخذ.

يمشي الصالح ينظر حوله وإلى السماء كان، زرقاء بلون البحر ذلك اليوم كانت، لا سحب لا غبار لا شيء يحجب لونها.

«لو أنّه الوقت ليل كُنت سأرى النجوم وكيف تضيء حولها»، قال الصالح بينه وبينه، والأفق أمامه ومنازل وأشجار حولها وأطفال، ونسوة كنّ في طريقهنّ إلى الحقول وقطعان من الماعز الأسود أمامهنّ، وحمير ونوق وكلاب. الشمس تتوسّط السماء كانت، والنسوة يُظلّلن طريقهنّ بسعف من النخيل يحملنها، والحمير تنوء تحت حمولتها والكلاب من شدّة الحرّ تمشي بمحاذاة النوق تحتمي بها.

«كيف الحياة من دونها كيف الليل يكون»، أكمل الصالح يقول، «أم أنّها النجوم لا بدّ تسير في مداراتها لا بدّ تأخذ مواقعها حتى أجلها».

أشجار النخيل مترامية على امتداد الطريق كانت، مثمرة بلون الأصفر كما لون الشمس بعد شتاء ومطر غزير.

«لو أرى ما خلفها النجوم، لو أسمع صوتها تسير»، قال الصالح وقد امتلكه الحزن، «لا بدّ يكون حولها أجمل من أخضر البساتين وهذا الثمر.

في عتمة الليل لا نرى سوى ضوئها وفي النهار لا نرى سوى امتداد الأزرق وأصفر الضوء، فكيف السبيل إليها».

جلس الصالح تحت أشجار النخيل يرى الصبية تتسلّقها تقطف ثمارها والعجزة تجمعها تُصنّفها، بعضه للتّجارة بعضه للمُقايضة، وجزء يُضاف إليه سكّر القصب، يغلي فوق الجمر يومين، تقتات عليه الحوامل ونسوة أنجبن لتوّهن.

«لماذا تجلس هكذا كما أبله، هكذا كما حمار تائه»، صاح أحد الصبية وقذف بعنقود من البلح فوق رأس الصالح.

لم يكن من الصالح سوى أن تجنّب عنقود البلح.

«بل يبدو كما شاة لتوّها أنجبت»، قال آخر، صغير الحجم سمين كما كرة، «قال جدّي إن الشاة عندما تلد لا تنظر إلى شيء، قال إنّها تبدو كما عمياء، وقال...».

«بل يبدو هكذا... هكذا كما شاة تنتظر فحلها.

أنظر كيف شفتاه هكذا تتدليان وكيف هكذا لعابه يسيل».

قام الصالح يُكمل سيره إلى جدّته.

«لو أنّك تبقى قليلاً... أقول إنّك لن تندم إن فعلت».

«وقد نُخلّصك هكذا من جنونك وقد تكون هكذا مثلنا».

أكمل الصالح طريقه.

«لو أنه يفعل كنتُ سأفعل معه هكذا كما القطط مع إناثها، وكنتُ هكذا سأبقى فوقه حتّى يرتاح من ضياعه الذي لا ينتهي، وكنتُ سأجعله يصرخ هكذا من شدة الألم حتى ينسى لون التربة وكيف تنبح الكلاب».

«أحد الغلمان حدّثني قال عن سيّده وكيف يأتيه كل ليلة، قال إنه يعتليه ويبقى فوقه ولو طوال الليل حتى يسمع صراخه. كما كلب مسعور قال الغُلام إنّه يصرخ تحت سيّده. قال إنّ سيّده يأتيه بعد منتصف الليل وبعد أن يكون قد غطّ في نومه، وقال إنّه ينقضّ عليه كما لو أنّه فريسته، دُفعة واحدة، هكذا، قال من دون أن يوقظه، فيبدأ الغُلام بالصراخ، قال ليس من ألم الدفع، قال من شدّة خوفه أن يضربه سيّده وقد يبقى طوال الليل فوقه، قال إنه لا يشعر بالألم وقد تعوّد ذلك منذ أن كان صغيراً، قال وإنه لا يشعر بالمتعة».

«وسيّده، وهكذا؟».

«ماذا عنه».

«هل يشعر، هكذا؟».

«بماذا».

«هكذا بالمتعة».

«لا أعلم».

بعد يومين علمت أم الصالح بما كان وكان ما كان... يومها وصل صراخها السماء، وكما عاصفة تحمل الرمال من جوف الصحراء كانت. القرية بأكملها أرعدت وما هدأت. شتمت كبارهم وشتمت صغارهم، ورجالهم ونساءهم، «أولاد القحبة، أبناء زانيات، أمّهاتكم لم يتركن رجلاً من شرّهن، لا عجوزاً ولا كلباً أجرب... وآباؤكم أجمعهم وشاة قطاريز، أمام كل من فقط يرغب يكشفون عن مؤخراتهم، وحرثاً يُحرثون. غلمان. آباؤكم غلمان.

مثلكم ومثل أجدادكم من قبلهم».

ثلاثة أيّام وأمّ الصالح تجوب شوارع القرية تصرخ تشتم أهلها، ثلاثة أيّام بلياليها وهي كما ثور هائج تُكسّر كل ما تراه أمامها، تهدّد بحرق القرية وما فيها، تهدمها فوق رؤوس أصحابها، «أبناء قحبة، أبناء قحبة، أبناء قحبة، أبناء قحبة...»، بدأت تصرخ والزبد يفيض من فمها يلطّخ وجهها، ولولا أنّ الصالح بكى أمامها يرجوها لما هدأت ولا توقّفت، وكان قد استحلفها بخالقها وبأغلى ما عندها.

أبو الصالح لم يجرؤ على الاقتراب منها، ولا أبوها ولا أخوها ولا أي من أقاربها.

كان الصالح يعلم أن أمّه لن تتوقّف ولن تهدأ من تلقاء نفسها، وكان قد رأى أنها بدأت تفقد اتزانها وأدرك أنها ستفقد رشدها إن لم تجد من يوقفها، وليس من يستطيع إيقافها غيره. لم تكن تلك المرة الأولى التي يرى الصالح أمّه بمثل هذه الحالة، بل وأسوأ منها، ولم تكن تلك المرة الأولى التي يفعل الصالح فيوقفها بعد أن تكون قد وصلت حداً تكاد تقضي على نفسها.

3

كان الصالح قد خرج لتوّه من غيبوبته، عندما رأى أمّه تفقد رشدها لأول مرة، ليس أنّه في ذلك اليوم حدث شيء يستحق ثورتها، وليس أن أحداً سمع أو رأى شيئاً حينها. أبو الصالح جالساً في مكانه كان، يرتشف قهوته ببطء شديد، يُحاول استبقاء مذاقها بفمه قدر إمكانه، فهي من الممنوعات ولا يستطيع الحصول عليها كرغبته، وهو من دونها لا يستطيع.

صامتاً كان كما عادته كل صباح، شارد الذهن يفكر بما عليه أن يفعل وقد انتصف فصل الشتاء ولا قطرة مطر واحدة. أوراق الشجر تتلوّى عطشا وشقوق الأرض تتّسع حماراً ينام فيها.

أمّ الصالح لم تسمع زوجها يقول ولا رأت أحداً غيره يفعل، غير أنها أحسّت بشيء يدور حولها، شيء لم تُحدّد كنهه ولكنّها شعرت بوجوده، ولم يكن غير أبي الصالح هناك.

نظرت إليه ولم تر شيئاً يؤكّد إحساسها أو ينفيه. تململ أبو الصالح في جلسته، فزادت شكوكها واشتدّت عليها الظنون، والظنون بالنسبة لأم الصالح كانت كافية لأن تثور ثورتها.

ابنة سيّد قوم كانت، يحكم أبوها على أرض بامتداد النظر وعلى رقاب لا تُحصى.

طوال ذلك اليوم وأمّ الصالح تصرخ بأعلى صوتها على زوجها وهو جالس قبالتها، صامت ساكن كما ساق نبتة جاف، مُطأطئ رأسه لا يجرؤ يرفعه، ينظر بين فخذيه كما طفل عاق، يداه مُتشابكتان فوق بطنه المنتفخ مرضاً أخذه عن أبيه، وبين الحين والحين ينظر إليها خلسة يراها تدقّ الأرض بقدميها تشتمه، تلعن أمّه وأباه، تقترب منه حدّ التصاقها به، تنحني فوقه مُمسكة بكتفيه تهزّهما، «كيف سوّلت لك نفسك تفعل»، تصرخ فوق رأسه، «كيف أمكنك تفعل كيف»، وتبتعد عنه لتعود تلتصق به أكثر، وتبتعد وتعود تقترب وتصرخ، «لو لم تكن ابن بكماء، شمطاء، لو لم يكن أجدادك من البدو عراة... ماذا كنت تفعل؟

لولا أنّك زوجي، لولا أنّك... كنت والله سأدقّ رأسك بكعب قدمي هذا، هكذا هكذا، وكنت سأمرغ رأسك بالتراب وكنت سأدوس فوقه، وكنت أبول فوقك وفوق أهلك أجمعين.

ليتك لم تكن، ليتك ليتك لست زوجي.

والله كنت سأفعل معك ما لم يره أحد ولا سمع عنه، والله كنت سأجعل منك عبرة للقاصي قبل الداني».

أحد لم يعلم سبباً لثورتها غيرها، أحد لم يعلم ماذا حدث ليكون منها كل هذا الذي كان.

لم يكن الصالح حينها قد تماسك تماماً بعد، وكانت الكلمات تخرج من فمه مُتشابكة ممغوطة، يُركّب الحروف فوق بعضها لا يعرف كيف يفصل بينها، فتأتي التاء كما الراء والنون كما الميم.

مشى الصالح نحو أمّه يُحرّك مُؤخّرته يميناً يساراً كما ذكر بط فقد ريش رأسه، أمسك بثيابها يشدّها، يبكي يضربها، ونام على الأرض يصرخ يشتم أمّها، «أمّكِ بكماء أمّكِ بكماء أمّكِ بكماء...».

في تلك الليلة نام الصالح بجانب أمّه، وأبو الصالح، كعادته عندما زوجته تثور ثورتها، بحث له عن مكان مخفي في زوايا البيت ينام فيه. «من يعلم ماذا امرأة مجنونة مثلها تفعل»، قال يتكوّر في مخبئه، «ليس أنّها وحدها بل جميعهن كذلك، وحتى أن العرجاء لم يسلم زوجها منها، عرجاء وزوجها يخاف منها، يحسب ألف حساب قبل أن يتفوّه بكلمة أمامها، بل ولا يجرؤ على الاقتراب منها إن لم تكن بمزاجها. عرجاء لها مزاج. لا حول الله. وهذه زوجة ابن الحارث كذلك، الشمطاء بنت الشمطاء تنظر إلى الناس كما لو أنّهم جرذان، والأجرب زوجها يمشي بجانبها كما كلب. يحرسها. ابن الحارث كلب حراسة ويتقاضى أجره بين فخذيها، يلعق رائحة حيضها، يُزيل قذرها. ابن الحارث كلب حارس في النهار وعامل نظافة في الليل، وفرح بنفسه.

عرجاء وشمطاء، وأمّ الصالح ماذا تكون؟».

وضع يديه بين فخذيه يجمع جسده يُكوّره أكثر، يلصق ذقنه بصدره يُحاول يتغلّب على برد الليل والشتاء. جسده يرتجف وأسنانه تصطك كما مطرقة وسدّان.

«أمّ الصالح ابنة رجل خان أهله ليُصبح سيّد قومه، أم الصالح ابنة من لا دم في عروقه، وأبوه من قبله، أم الصالح ابنة كلب. وأنا زوجها. أنا كلب. لو لم أكن كلباً لكنتُ الآن فوقها، رغماً عنها، وكنت سأجعلها تصرخ تحت جسدي كما شاة تُذبح، ومن بعدها كنتُ سألقّنها درساً لا تنساه طوال حياتها، وكنتُ سأدبغ جسدها بالأزرق، وشعرها أجزّه ووجهها كنت أدقّه دقّاً. دقّاً كما معدن.

ولكني كلب، كلب، كما سائر الرجال. والواحد منّا عندما يسمع صوت نباحه يعتقد أنّه زئير، وأنّه أسد يملك غابة وسبع لبؤات، يركضن يصطدن من أجله، والمرأة تغذي وهمه وتبتسم، تجعله يوقن أنّ للرّجال صفات، وأنّهم الرجال من دون الخشونة أنصاف رجال... الرجل يُحكّم عقله. الرجل له مواقفه. لا ينقاد لعواطفه. يتحمّل الشدائد. لا يضعف. لا يجبن.

بماذا أيضاً تجعله يؤمن.

لها فيض العاطفة والإحساس وله الجمود واليبوسة، لها نعومة الجسد وله الخشونة، لها الليونة وله تصلّب العضلات، لها العمل داخل البيت حيث الظل والدفء وله حرّ الشمس والبرد والقذر، لها الزينة وله رائحة الدواب، لها الدلال وله الموت جرياً خلف فتات الخبز.

هذا هو تحكيم العقل، وهكذا الرجل فرحاً بذاته يفعل، مُحتفلاً بسيادته، بحُكمه وحكمته، برجولته وجبروته، وخشونته، وكما الطواويس ينظر بين فخذيها ليطمئنّ على عرضه، وبشفتيها يرى كرامته، صوتها حياؤه، وخروجها من البيت كابوسه... يُلاحقها يُراقب خطواتها، ثم يسجنها في غرفة نومه، وكأنها إن أرادت لن تنكح غيره».

استيقظ أبو الصالح يسمع زوجته تُحدّث الصالح عنه وكم يُعاني منها عندما تغضب، والصالح يجلس في حُضنها ينظر إليها لا يفقه من كلامها ولا حرفاً واحداً. تبكي كانت، تقول له كم تحمّل أبوه منها وكم فعل من أجلها، وإن أباه أبداً لم يخُطئ مثلها، وإنّه لا أحد بمثل صبره ولا أحد بمثل خُلقه، ولكنّه الأمر ليس تحت سيطرتها، خصوصاً إن كان الأمر يتعلّق بطفلها وحيدها، ولولا صبره لكانت اليوم في بيت أهلها، «والمرأة لا كرامة لها سوى في بيتها، حتى لو كان أبوها سيّداً لقومه، وأنا لا أستطيع من دونه، ليته يعلم هذا. عليك أن تعلم هذا. أبوك لا أحد مثله وكم أتمنّى لو أنه لا يستطيع من دوني. أخاف ينفذ صبره فيهجرني، أخاف يُغادرنا ولا يعود».

اضطرب شكل وجهه، كما في العادة يحدث عندما يسمعها تقول عن حاجتها له، بعد أن تكون قد داست فوقه وشتمت جميع أقاربه.

«ليس أنّي لا أحاول كبت غضبي، ليس أنّي لا أفعل ما يمكنني، ولكنّي أبداً لا أنجح. كأنما الشيطان يدخلني يسيطر على داخلي عندما الأمر يتعلق بوحيدي. أفقد رشدي. أصبح كما ممسوسة في عتمة الليل. ليس أغلى منك على نفسي.

أبوك ليس مثلي، أبوك لا يفقد رشده لا يفقد صوابه. ليتني مثله. ليتك تكون مثله.

كم لا أستطيع من دونه».

«أم الصالح امرأة صالحة»، قال أبو الصالح ونفسه تأكله، تعتصره، يضغط فوق انتفاخ بطنه يُحاول يخفّف توتّره، «عصبيّة الخلق ولكنها صالحة، لعنة الله على الغضب لعنة الله عليه، وما كانت لتفعل ما فعلت لولا أنّ الغضب أعمى قلبها، والواحد منّا حين يغضب لا يعي فعله ولا قوله، وإن كنت لا أغضب ولا أفعل مثل فعلها فهذا أمر الله وقضاؤه، والله لا يحمّل نفساً إلا وسعها. ابنة سيّد قومه أم الصالح، ابنة عزّ وجاه، وأبناء العزّ ليسوا كأبناء الفقر، مثلنا، أبناء العزّ نفسهم عزيزة عليهم، لا يصمتون على أذيّتهم ولا يكظمون، هذه سماتهم، أبناء العزّ يفعلون ما بدا لهم، وأنا أعرَف الناس بهذا، أعرفه كما أعرف وجهي وكفّ يدي، بل وأكثر مما أعرف أطفالي، وانتفاخ بطني هذا ليس من امرأة غيرها كانت ستقبل به، زوجة ابن الحارث كانت ستجد لها رجلاً آخر، بل رجلين اثنين لو أصاب زوجها ما أصابني. ابنة أصول أمّ الصالح، ابنة أصول».

4

حتى مجيء الليل وأيّام من بعد ما حدّثه التياح عن زوجة الشيخ، لم يتفوّه الصالح ولو بكلمة واحدة، صامتاً ساكناً كان، مُغمضاً عينيه يرى أمّه كما لو أنّها أمامه، يَسمع صُراخها وبُكاءها، وشتائمها وشكواها، يرى رحيلها، وجسدها ممدّد وأربع أخواته حولها، أيّام والصور تتدفّق أمامه من تلقائها، والتياح بجانبه، يتدثّر بمعطفه يجلس لا يفعل لا يقول، ينظر إلى الصالح يراه يغادر جسده، يتلفّت حوله، يُدقّق النظر يُصغي لعلّه يسمع ما يأتي الصالح لعلّه يرى ما يراه. لم ينجح. في اليوم الرابع كان الصالح في تمام غيابه، تأتيه الصور تتزاحم أمامه، تتمزّق تتناثر فوقه، تملأ كما غُبار حوله، تمتزج ببعضها تصفع وجهه، تعدم بصره... رأى خروجه من البيت ورأى الزانية تمسك يده تحدّثه عن حياته أمامه، رأى المُتسوّل يمشي يدور أمامه ورأى العجوز تُداعب عُضوه تأخذ منه آلامه، رأى صُغرى أخواته تبكي تستجدي بقاءه وسمع الشيخ يهمس كلماته، ونسوة يستجدين ربّهن يطلبن عفوه، وكلاباً تنهش الجُثث وجنداً يملأون القبور، وسيوفاً وخيولاً تصهل، وأبقاراً تُذبح وأشجاراً تُقطع، ونيراناً تعلو تحضيراً لقرابين، وداوُد يقف عند النيران يُغذّيها، يملأ المكان برائحة الدهن يحترق. يذوب. يتدفّق ينابيع سوداء اللون ممزوجة بتراب، يرفع يُمناه يُلوّح بها والجموع تَرفع يُمناها مثله، تَصرخ بأعلى صوتها تُنادي الرب يَحميها، تستجديه يُدافع عنها، وعن أغنامها وعن أبقارها، وأن يضرب بسيفه يُحارب معها، ويبطش بأعدائها يَحرث جُثثها، يُمزّقها، يُشوهها يَحرقها، وداود يقف بين الجموع ينظر إليها، يُراقب حركتها، يترقّب هيجانها، خروجها عن طورها، فُقدانها بصيرتها. ولجامها. رأى الجموع وقد امتلأت بغضبها على من ليس منها، على من لا يُشبهها، وعلى من لا يعبد ربّها ولا يسجد سجودها، فرفع صوته يُنادي شعب إسرائيل، يُعلن أمامهم يُبلغهم بمشيئة الرب إلههم أنّ سُليمَانَ ابنه وحدَهُ اختَارَهُ الله، والطبول كانت تُقرع والذبائح تحرق قرابين، «باركوا الرب إلهكم»، صرخ بأعلى صوته ومدّ يده يأكل ويشرب، ومن بعده أكل شعب إسرائيل وشرب حتى الثمالة وملّك سليمان.

في اليوم السابع بدأ صوت الشيخ يعلو، تتدفّق كلماته تأتي الصالح من أرجاء الكون تُحيطه، تتكاثر كما الجراد في حقول نضج أخضرها، وكما طنين نحل يُدافع عن مليكته بدأ صوت الشيخ يملأ الفراغ يسدّ الطريق أمام الصور وأمام داود وكلماته، يعلو يطغى على غضب الجموع وعلى صُراخها، يومين كاملين، حتى بدأ الصالح يسمع كلمات الشيخ لا غيرها، تأتيه كأنّما يوحى إليه.

«الله لا إله إلا هو، لا غيره، هو الحيّ الباقي هو الأبد، هو الدوام الحاضر هو الأزل، العالم، قوله الحكم، الله لا إله إلا هو لا تأخذ بغيره، هو الحقّ لا يتبدّل، لا تسعى بغير كلماته، تسليماً له، مشيئته.

إبليس هو الباطل وقوله ومن يتبعه».

أرعدت السماء.

5

«لا يبذل جهداً سوى من لا يرى طريقاً مُستوياً أمامه»، قال الصالح للتّياح بعد عودته من غيابه.

«ليس من طريق مُستوٍ أمامي».

«ليس من طريق مُستوي ولا من طريق عثرات، ليس من شيء سوى ما نرى».

«ولكنّه الركام أبى يُطاوع رغبتك ويكون بناء».

نظر الصالح إلى السماء، فأدرك التياح أنّ ليلة أخرى لن تمر كما عشرات المرّات تخيّل وتمنى وهو في طريقه إلى الصالح، وبدأ يبحث عن حطب يُشعله وعن مكان يحميهما من العواصف الآتية والبرد.

في تلك الليلة كان المطر كما لو أنّها السماء فتحت جميع أبوابها وأخرجت كل المياه التي فيها. قطرات المطر بحجم حبّ العنب كانت. وفي تلك الليلة جاء الصالح صوت الشيخ ثانية، أجشّ جاء صوته، قبل الفجر بقليل، بين نوم وصحو كان الصالح عندما وصلت أولى كلمات الشيخ، متناثرة كانت، متقطّعة لا حروف وصل بينها، تختلط بصوت الرعد تمتزج بصوت المطر، فبدت للصّالح أنّها كلمات داود لا تزال تُطارده، وأنّها ستحكم قبضتها عليه للأبد إن لم يصدّها عنه، فبدأ يصدّها يُبعدها، يحرّك رأسه يميناً يساراً وبيديه يدفعها بعيداً عنه، ساعة بأكملها والصالح يدفع الكلمات يُبعدها والكلمات تعود، إلى أن أحس بيد الشيخ تُلامس صدره، ارتجف الصالح، هدأت روحه، وبدأت الكلمات تتدفّق كما ينبوع بين نخيل، تقول إنّه حتى اليوم لم ير سوى شرق الأرض أمامه، وإنّه لم يسمع من الأصوات سوى قليلها، وإنّه اليوم قد أنهى أيّام صباه، وإنّه سوف يرى الأرض وما يدور حولها وإنّه سوف يسمع من الأصوات معظمها. ليس جميعها. هنالك من الأصوات ما تستحقّ الإصغاء لها وهنالك ما لا تستحق حتى سماعها، ومنها ما عليه سدّ أذنيه أمامها.

«وقد أسكتّ الضجيج من حولك، تمّت أيّامك الأولى، وأيّامك الأخَرة آتية محمّلة بخفايا الكون والعبر، والعلم سيسعى يُرافق دربك والحكمة، وسيملأ الإيمان صدركَ بالغيب، والنور سيُضيء كونك وأكواناً غيره، وسيرك لا ظُلمة ولا ظنون ستحدّان حوله. لا ضغائن. إيّاك ممّن لا يكون الواحد الأحد في صوته. إيّاك والشطط. سيأتيك كثيراً. منه الأخّاذ والساحر. وسيأتيك لغواً وسيأتيك غير الحقّ».

مُمدّد لبث الصالح كما كان عندما صوت الشيخ أتاه، يومين وبضع يوم، عيناه مُغلقتان ويداه ممدودتان كما قطعتي خشب، والتياح من شدّة البرد يجلس بجانب الصالح مُتكوّراً على نفسه، قلقاً لا يعرف ماذا يفعل، تارة ينظر إلى الصالح يتيقّن من حركة صدره تارة ينظر حوله، ثم يقترب منه يسمع نبضات قلبه، ويمدّ يده إلى وجهه، لا يلمسه، يتململ في مكانه، يضع غطاء إضافياً فوق الصالح، يقف، يمسك سرواله يرفعه حتى خاصرته، يُحكم معطفه، يجلس، ينظر إلى الصالح يتيقّن من حركة صدره ومرّة أخرى يمدّ يده إلى وجهه...

في اليوم الثالث كان الجوع قد أمسك بعقل التياح ولعابه بدأ يملأ فمه، ورأسه كان يؤلمه. جال بنظره يتفقّد المكان، لم ير ما قد يُزعج الصالح أو يُخرجه من نومه، فقام يبحث عمّا يهدّئ جوعه

وألم رأسه، «والصالح عليه أن يأكل»، قال يمشي يسمع حركة من حوله. توقّف ينظر حوله يتبيّن مصدر الصوت. لا شيء رأى. عاد يجلس بجانب الصالح.

عند المساء تقريباً، استيقظ الصالح، مُنهكاً كان، لا يشعر بجسده لا يقوى على تحريكه، كأنّما أطرافه تحطّمت كلّها وبُترت. لم ينظر إلى التياح ولا كلّمه، لم يُحاول أن يتحرّك ولا حاول تغيير موضعه.

مُمدّداً بقي حتى صباح اليوم الرابع، يسمع صوتاً لم يخف عليه مصدره، عيناه مفتوحتان ولا أثر للحياة فيهما.

التفت التياح ثانية حوله.

6

وبدأت البلدة تتحوّل، تعود إلى سابق عهدها. بنيان وأزقّة. طرق تتقاطع وأخرى تؤدي إلى سوق. إبل تمرّ محمّلة بالبضائع وإبل تُشترى وتُباع. أطفال يلعبون ورجال يذهبون إلى أعمالهم ويعودون. بساتين وأشجار مُثمرة وحقول. هضاب تتبدّل ألوانها وينابيع مياهها عذبة. نساء يجمعن ثمار البساتين وأخريات يحصدن الحقول. قطعان غنم ترعى وحمير مُثقلة بحمولتها وكلاب تنبح. وخمر وجاريات وغلمان. وزانيات ورجال. وآمر يُحكم قبضته وجند وخيول وسيوف.

والصالح تأتيه الأحاديث، والصوت والصور، ويأتيه المرضى من قطر ومكان... هذا فقد بصره وذاك سمعه، وآخر كسيح، ومن أصابه الصرع والعاقر والعنين، ومن فقد عقله ومن دخل فيه الجن، حتى أنّهم بدأوا يأتونه بموتاهم. كان الصالح لا يفعل سوى أن يمدّ يده يلامس جبين المريض ويقرأ بعض الآيات حتى يمشي الكسيح ويسترد الأعمى بصره.

والتياح يتبع الصالح، يُراقب طريقه، يحميه من الغدر ومن الحاسدين، يصدّ عنه الأذى ويزيل الصعاب من أمامه، كأنّما يقود محراثاً يُخضع الأرض قبل زرعها، لا يترك حجراً ولا عشباً فيها. كان التياح لا يهدأ حتى يقضي على كلّ من تسوّل له نفسه أن يؤذي الصالح أو حتى أحد أتباعه، كان يقضي الليلة بعد الليلة يترقّب، يرسم الخطط، يُعدّلها، يُغيّرها، إلى أن ينتهي من أمره، وتكون الطريق خالية من العثرات أمام الصالح.

وبدأ الناس يتعوّدون على حياة هادئة، لا ضجيج فيها لا مفاجئات. فرحين كانوا بسكون البلدة ورتابتها، حتى أنّهم أصبحوا لا يفرحون لمولود إذا جاء في غير موعده، ولا لزواج إن لم يكن لديهم علم بجميع تفاصيله أسابيع عديدة قبل تحديد مراسيم الزواج وتاريخ الفرح. كان أهل العروسين يدفعون بالفتيان من أبنائهم ينشرون الأقاويل، يخترعون قصصاً لا أساس لها من الصحة عن الفرح حتى يتعوّد الناس ويأنسوا الحدث. لبثوا على تلك العادة إلى أن قُتل عريس بسبب الأقاويل والقصص التي كان الفتيان ينشرونها حول عروسه، وبدل أن يكون فرح كان عويل ومأتم، وثأر وقتلى، ولولا الصالح لما توقّف القتل ولغرقت البلدة بالدماء.

كان للصّالح في ذلك الحين أتباع كثيرون، منهم الفقير والمتسوّل ومنهم من يملك من المال كثير، منهم من أهل البلدة ومنهم أغراب أتوا من أقاصي الأرض بحثاً عن طريق، منهم التائه ومنهم من يبتغي الخلاص من ذنوبه وخطاياه. أجمعهم كانوا أتباعاً مُخلصين، لا يبغون سوى سماع الصالح يحدّثهم، يقول لهم عن أيّام كانت وأيّام ستكون، وعن عبر الحياة الدنيا وعن الحياة الأخرى، وكان يُحدّثهم عن رؤاه وعن كلمات مقدّسات يسمعها في منامه. ولم يكن على الصالح سوى أن يُحدّث أتباعه وأهل البلدة عن الإثم والخطيئة حتى يتوقفوا عن الأخذ بالثأر وإراقة الدماء، وكان بإمكانه أن يُحدّثهم عن الحقّ وعن قدسيّة الحياة، غير أنّه في ذلك الحين قصّ عليهم قصّة ثُعبانين اثنين، تعاركا وتقاتلا، وأمسك الواحد منهما بذيل الآخر وبدأ يقضمه... إلى أن التهما بعضهما ووصل الواحد منهما إلى رأسه الآخر. لا هذا يستطيع قضم رأس ذاك ولا ذاك بمقدوره يفعل.

«الرأس عند الرأس ولا حراك»، أنهى الصالح حديثه وغادرهم.

توقّف القتل وتصالح الناس، وعادت الحياة كما كانت، ومن يومها توقّف الناس عن كل قيل وقال، غير أنّهم أبقوا على عادة دفن موتاهم ساعة وبعض الساعة بعد الوفاة، فأحد منهم لم يرغب أن تعود إليه ذكرى الموت ورائحته. كانت الشوارع مليئة بالجُثث والدماء، ورائحة الموت في كل مكان، والناس لا يجرؤون حتى على إبعادها عن الطريق خوفاً من اتهامهم بالتعاطف والمقاومة.

سمع الوالي عن قصّة الثعبانين ووصل إليه ما كان من الناس، وكيف أنّهم أوقفوا القتل وتصالحوا حال سماعهم حديث الصالح، فأرسل إليه بثلاثة من أعوانه يستدعيه ليُجالسه ويكون من بين ندمائه... يستشيره ويأخذ رأيه في أمور ولايته.

فبعث الصالح برسالة للوالي يستسمحه عذراً، يشكره فيها ويقول له إنّه لا يفقه من أمور الساسة شيئاً:

«حفظ الله مقام مولاي وأحاطه بلطفه.

إنّه لشرف عظيم أن أكون بين من يعرض نصحه والمشورة أمام سيّد القوم ومولاهم، وإنّه لنعمة من الله أن أخدم تحت إمرته.

مولاي،

لم يُشرّفني الله بعلم من عنده في أمور الحكم والساسة، بل بمقدار محدود من الحكمة في أمور الدنيا وصلاح الناس، أكشفها أمامهم لعلهم يأخذون بها ويهتدون. لا أملك سوى هذا الطريق. لو أنّه الله أنعم عليّ بشيء من علمه في أمور الولاية وتسييس العامة، كنتُ سألتحق بجند سيادته وأكون من أعوانه منذ اللحظة.

وبالله المستعان

الصالح بن عليّ بن عبد الله

بعد يومين أتى ثلاثة أعوان الوالي ومعهم رجل طاعن في السن هرم، يمتطي حصاناً أسود اللون معقوص الذيل، وعباءة من وبر النوق الأبيض تُزيّن ظهره. ترجّل الرجل عن الحصان، أمسك برسنه وقدّمه للصّالح، «هو أصيل أتى به مولانا من قبيلة جنوبية الأصل، يعود بسلالته ثلاثمائة من السنين الخضراء ومائة من السنين الجفاف، يقدّمه لك جزاء ما تفعله في ولايته»، قال يتّكئ على كتف أحد الرجال الثلاثة، وأدار وجهه يهمّ بمغادرة الصالح سيراً على قدميه.

تقدّم الصالح من الرجل وقد أدرك رسالة الوالي، أمسك بيده وأجلسه مكانه، وأتاه أحد أتباع الصالح بكوب من ماء الورد، «سيكون لمولانا ما يرغب، آتيه غداً لأتشرّف برؤية مقامه وأشكر سخاءه»، قال الصالح للرّجل وطلب منه أن يركب الحصان ويعود به إلى بيته، «سيأتي أحد الرجال ليعود بالحصان من بيتك».

«لا يركب هذا الأصيل من بعدي غيرك»، قال الرجل للصالح ينظر إلى أعوان الوالي.

«لا عليك، سيعود سيراً على قدميه».

«لا يمسك هذا الرسن غير من يمتطيه».

«سيأتي برسن من عنده».

«ولا يُقاد هذا الأصيل بغير هذا الرسن».

«سيكون ما يرغب واليك وسيّد هذا البلد»، قال الصالح وغادره.

بعد ساعة من الزمن، أتى التياح يمسك بقطعة من القماش تقتر رائحة فرس في موعدها، وقف أمام الحصان برهة وبدأ يمشي... وبدأ الحصان يمشي خلفه.

عاد بعد مُنتصف الليل، ولولا خوفه أن تزول رائحة الفرس ويفقد الحصان ما كان ليتوقف عن السير، ولولا قلقه أن تُساور الصالح شكوك حوله ما كان أعوان الوالي ليصلوا إلى بيوتهم ويناموا في أسرّتهم تلك الليلة. غير أنّه لم يكن ليعود قبل أن يعرف أين يسكن كل منهم، خصوصاً من ظنّ أنه المسؤول فيهم.

كان الصالح في انتظاره.

«أين ترغب أن يكون مربط الحصان»، سأله التياح.

«حيث لا يناله سوء»، قال الصالح وقد أمسك برسن الحصان، «وحيث لا يأخذ مِن سلالته مَن لا يصونها».

«في بيتي حجرة لا أنام فيها ولا أرى استعمالاً قريباً لها».

«تعلم أني أبحث لك عن فتاة صالحة».

«مَن مثلي لا يصلح أن يكون زوجا لدابّة، فكيف لامرأة... والنساء، لا يصلحن زوجات».

«ولكنّهن النساء، كما الرجال، منهنّ الصالحات ومنهن الطالحات، وحانية ليست كل النساء».

«من أين لك بأمر حانية».

«سمعتك تناديها أثناء نومك... كنت تحدّث الخُزامي عنها وتسأله كيف تنساها».

«الخُزامي، ليس الأحمدي! لم أر الخُزامي منذ خرجتُ من بيت الشيخ، وحتى أنّي لا أذكر وجهه».

«وهو شديد الحضور في أحلامك».

«هل رأيته منذ رحيل الشيخ».

«لا، ولم يكن بين المشيّعين لجثمان الشيخ».

«ولكنّه الخُزامي كان يخطو خلف الشيخ كما ظله».

«كل وسيره في طريق».

«ولكنّه...».

«دعك الآن من الخُزامي».

«لن يمسّ الحصان سوءٌ في بيتي، ولن يأخذ مِن سلالته مَن لا يُحسن الحفاظ عليها».

«وتكون ناطوره كما فلاح ينطر زرعه».

نظر التياح إلى الصالح، أمسك سرواله ورفعه كعادته، وبدأ يقصّ على الصالح قصّته مع أمه وكيف كان يبدأ يومه وهو في الرابعة من عمره سيراً على قدميه، وأمّه أمامه، يركض يُحاول اللحاق بها، تارة يتعثّر بحفرة مليئة بماء قذر وتارة يرتطم بكومة من النفايات المُتجمعة وسط الطريق، يبكي يناديها، يصرخ كما فرخ دجاجة تائه، وأمه لا تلتفت إليه، يُساعده أحد المارّة، يُنظف له يديه ويركض به إلى أمه، إلى أن اعتاد الأمر وعرف الطريق إلى الحقول، «قبل سنين، أقصد وأنا طفل صغير، كنتُ أستيقظ في الخامسة من كل صباح، أغادر فراشي ومن دون أن أغتسل أو أبدل ملابسي كنت أخرج مع أمّي أرافقها إلى الحقول، تمشي أمامي ولا تلتفت خلفها مهما حدث معي، كما لو أنّها كانت ترغب أن أفقدها. ولولا المارة وأصحاب الحوانيت لا أعرف ماذا كان سيحدث معي. كنا نعمل في الحقول صيفاً وأحياناً في شتاء. نجمع القش، ننظف الأرض من الأعشاب الضارة، نزيل الأحجار خلف الحرّاثين، نقلم الأشجار، نجني الثمر، وكل ما يطلبه الفلاحون منّا حتى المساء. نعود إلى البيت كما خرجنا، أمي تمشي أمامي وأنا أركض أحاول اللحاق بها... أتناول طعامي حال وصولنا وأنام، من دون أن أغتسل ومن دون أن أبدّل ملابسي.

فصل الشتاء كان عذاباً، كنّا عندما نعمل في الحقول، يكون البرد قارصاً كما حد السيف، والمطر، كأنما السماء تعاقبنا، لا يتوقف. تعرف كيف تكون التربة في فصل الشتاء. هناك، في الجنوب، تفيض المياه وتمتلئ بها الحقول كل شتاء، وكان علينا أن نبقى في الأرض نعمل ولو فاضت المياه وكان طوفان. سمعتُ أنه في القديم كان هنالك سد عظيم يُحوّل الأمطار عن الحقول، لا أعرف ماذا يُطلق عليه، ويقال إنّها الأرض في الجنوب كانت كلها خضراء، والبلاد عمران لا مثيل لها. لا أعلم إن كان ما قيل صحيحاً أم لا. على أي حال، كنّا نعمل تحت المطر طوال النهار، ونعود إلى البيت لنجد نصفه مغموراً بالمياه، والطين في كل مكان. نتجمع في غرفة واحدة، نأكل وننام فيها، أنا وأخوتي وأمي، ثمانية أفراد في غرفة واحدة، الواحد فوق الآخر نتكوّم كما دجاج. أبي لا أعرف عنه شيئاً. كان علينا إغلاق جميع المنافذ حتى لا ينفذ البرد أو الماء، وكان علينا أن نرتدي جميع ملابسنا وأن نلتحف بكل ما لدينا من أغطية، وكان علينا أن نلتصق ببعضنا ورائحة أجسادنا كما رائحة جيفة.

رائحة الحصان لن تكون كما كانت رائحتنا.

وأحياناً كانت أمي تعمل في منازل الأغنياء...».

استمر التياح يحدّث الصالح حتى الصباح، يقصّ عليه قصصاً أعرفها وأخرى لم أسمع بها من قبل، ولا أعرف لماذا التياح قصّها، ولا أعلم إن كان التياح يعلم... عندما رأيته وقد أخرجته زوجة الشيخ من بيتها، كان جسده ينتفض كما دجاجة ذبحت لتوّها، وحدّثني عن زوجة الشيخ وكيف أنّها لا تؤمن بالصدق كما دائماً كانت تقول، وأنّه كان يستطيع أن يكذب عليها وأن لا يحدّثها عن أمّه ولا أنّها كانت تعمل زانية، وها هو الآن يقص على الصالح قصص أمه ويرجف كما لو أنه لم يقصّها من قبل.

تُرى ماذا يحدث داخله؟ فالإنسان لا يقول عن أمّه إنّها زانية ولو كانت كذلك، إلا إذا كان يكرهها، والتياح، بقدر ما أعلم، لم يحقد عليها رغم أنّها كانت تُنظف أقدام الرجال وتنام تحت أجسادهم، ولم يكرهها رغم أنها تزوجت وتركته يعيل أخوته وأبناء عمه، فلماذا قصّ قصصها وقال عنها لزوجة الشيخ، ولماذا الآن يفعل، والصالح لم يسأله عن أمه، وأبداً لا يسأل مثل هذه الأسئلة؟

في الصباح، كان الصالح في طريقه إلى الوالي، والتياح خلفه، يمشي بعيداً عنه يُراقب، يتفحّص كل من يمرّ في الطريق، خصوصاً أولئك الذين مر عليهم الصالح وتوقّف ليتبادل أطراف الحديث معهم. استمر الصالح يتنقّل من مكان إلى آخر، يصافح هذا ويتحدّث مع ذاك، وكان مع كل خطوة يخطوها، يزداد عدد الناس من حوله. وصل قصر الوالي عند الظهر تقريباً، وكان عدد الناس خلفه يفوق عدد حراس الوالي وقصره. وسط المدينة كان، بناه على أنقاض مسجد وقصر أمير هرب عندما سقطت المدينة. مستطيل الشكل، تعلوه قبة متكئة على أقواس من الحجر المزخرف، جدرانه مزينة بمشربيات نصف دائرية، ومن حوله حدائق مليئة بالأزهار وأنواع من أشجار التين مثمرة، وعنب وتفاح أحمر، وكثير من الحرس وعسكر، يقف كل منهم في مكانه يمسك بسيفه، صامتاً ساكناً كأنما لا روح فيه.

7

كان الصالح يتحدّث مع أتباعه عندما سمع صراخ فتاة لم تتجاوز السادسة من عمرها، توقف الصالح عن الحديث وقام يتبيّن الأمر. وجد الفتاة تحت شجرة مثقلة الأغصان مائلة، تقف عند جثّة رجل وقد جفّت دماؤه فوق ملابسه. متوسط العمر والحجم كان، أسود الشعر أسمر الوجه، وثيابه فضفاضة، تحوّل لونها الأبيض إلى أحمر ممزوج بتراب.

ذلك كان بعد ثلاثة أسابيع من تلبية الصالح لدعوة الوالي، واعتذاره ثانية لعدم معرفته بأمور الساسة والناس.

نظر الصالح إلى وجه الرجل، لم يعرفه رغم أنه يكاد يعرف جميع الناس هناك، من أصغرهم وحتى أكبرهم، رجالا ونساء».

«قد يكون غريباً»، قال التياح.

«لا»، أجاب الصالح، «وجهه مألوف، بل أكاد أقول إني أعرف من يكون».

«قد تكون صادفته في السوق أو عند أحد معارفك».

«بل رأيته في مكان قريب من هنا»، قال الصالح، «إنّه... إنّه أحد أعوان الوالي الثلاثة».

اقترب التياح من الرجل، يتبيّن ما تبقى من معالم وجهه، «نعم إنّه أحد الذين أتوا بالحصان قبل أسبوعين أو ثلاثة، هذا كبيرهم، وكان ينظر إليك خفية. يبدو كمن قُتل قبل يومين... يا لها من ميتة».

«لا علم لي بمواقيت الموت... ولا يستحق إنسان أن يُذبح كما دابّة»، قال الصالح وأمر أتباعه أن يُغطوا الجثّة ريثما يأتي أهل الرجل ويدفنوه كما يليق بإنسان.

«ربّما اعتدى على طفلة أو زوجة»، قال التياح.

«ربّما... ولكن لا داعي للقتل ولا لهذا الكم من الوحشية».

«وربّما خان قومه، من يدري... تعلم أنه كان ينظر إليك كما لو أنّك عدوّه».

«لا يعلم الغيب سواه، وما لنا سوى الظن».

«قد يكون الوالي من أمر بقتله».

«لا علم إلا عنده»، قال الصالح وغادر.

بعد أسبوعين وجد أهل الحيّ جثّة ثاني أعوان الوالي، في المكان نفسه، غير أنها لم تكن بمثل حالة الأولى. كانت الجثّة نظيفة، بدت كما لو أنّ الرجل قُتِل وقد استحم لتوّه، حليق الوجه والرأس ورائحة طيب تفوح من ثيابه، يداه ممدودتان فوق بطنه، غطاء ناصع البياض يغطيه وحجر أملس تحت رأسه. حتى أن الناس ظنّوا أن القاتل كان قد أعلم الرجل أنه سيرسله لملاقاة ربّه، وأنّه طلب منه أن يشتري كفنه وأن يحضّر نفسه، بل وذهبوا إلى القول بأنّ القاتل والمقتول تواعدا واتفقا،

وأنهما لا بد خططا للأمر سوية... صديقين وربّما قريبين كانا، اختلفا ولم يتمكنا من تسوية الأمر بينهما، حاولا كثيراً ولم ينجحا، فاتفقا أن يكون قاتلاً وأن يكون مقتولاً، وقضى الواحد منهما على الآخر، فلا يُعقل أن تكون الجثّة بمثل هذه الحالة لولا صلة القرابة بينهما. وانتشرت الشائعات وتراكمت الأقاويل فوق بعضها كما الأيّام، ولولا وقوع حادث آخر لما توقّف الناس عن خلق القصص وإبداع التفاصيل حول الصديقين القريبين وما كان بينهما.

في الموقع نفسه وجدوا جًثة ثالث أعوان الوالي، وفي الحالة ذاتها.

وحده الصالح كان في ريبة من الأمر، غير أنّه صدّ الفكرة وأبعدها عنه كما لو أنّها وباء، «لا يُعقل أن يكون التياح، لا يُعقل. ومهما كان من أمره، فهو لا يقتل»، قال الصالح لنفسه وطلب من أتباعه أن يبحثوا ويجدوا أهل القتيل قبل أن تتعفّن الجثّة وتنتشر رائحتها. أما الناس، وقد امتلكهم الخوف، فبدأت قصصهم تتشابك مع بعضها وتتداخل حتى أصبحت خليطاً من تفاصيل لا رابط بينها سوى غرابتها. هذا يقول إنّه شخص يتحكم به جن نصفه شيطان نصفه ملاك، الشيطان يأمره بالقتل، والملاك يطلب منه تنظيفه، وذاك يقول إن القاتل مجنون سرقت الشياطين نصف روحه وتركت له النصف الآخر، نصف يقتل ونصف يغسل الجُثة وينظفها. وقال آخرون إن القاتل لا يُنظّف الجثث ولا يغسلها، بل يتركها كما هي مُلطخة بالدم، وإن مصّاص دماء يأتي من بعده، يجثم فوق الجثث كما كلب، يلعق الدم عنها ويمصّه حتى آخر قطرة، فتتحوّل الجثث إلى بيضاء لا رائحة لها، ولولا مصّاص الدماء هذا، لفاحت رائحة الجثث وانتشرت، ولأتت الوحوش الكاسرة وأكلتها. وقالوا إنهم رأوا ذئاباً كبيرة الحجم كما دببة، تقفز فوق الجُثث كما تقفز فوق قطع من خشب، لا تنظر إليها ولا حتى تُحاول أن تتفحّصها.

ومع تكاثر الجثث، تعاظم الخوف وتكاثرت القصص، خصوصاً وأنّ الناس بدأوا يجدون جثثاً في كل مكان، كما ولم تكن الجثث كلها نظيفة ولا كلها مغطاة، وحتى أن بعضها كان يسبح في مستنقع من الماء الآسن يُغطيه الذباب وبعضها يسبح في مستنقع من الدم. وهكذا بدأ الناس يتناقلون قصصاً عن مجموعة من القتلة أتت من شمال الأرض البعيد، حيث الجبال تُغطيها الثلوج والسماء تحجبها الغيوم، وأنّ هؤلاء القتلة يخشون ضوء الشمس واكتمال القمر، ولهذا لا يخرجون إلا في الليل وعندما الغيوم تُغطي السماء، وفي العتمة يذبحون ويقتلون، وقيل إنّهم يقدّسون الموت ويسجدون لأمواتهم، ثلاثة أيام، ثم يأكلونهم...

وبدأ الناس يُغادرون أعمالهم قبل غُروب الشمس ويلزمون منازلهم طوال الليل، وإذا اقتضى الأمر لا يخرجون إلا جماعات جماعات، وأصبحوا يتجنّبون اللقاء مع الغرباء ولا يتحدّثون معهم إلا إذا كانت الشمس وسط السماء ولا غيوم تحجبها. وانتشر الجند في المدينة ووقف الحرّاس عند مداخلها، لا خارج منها ولا داخل إليها إلا بإذن الوالي وبختمه، وبعد مئة سؤال وسؤال. من أنت ومن أبوك ومن أمك، أين تسكن وماذا تعمل، كم عدد أبنائك وهل تزوّج أبوك من غير أمّك، من أين أتيت وإلى أين تُغادر، لماذا تُسافر وحدك إن كان مسافراً بمفرده، ولماذا تُسافر مع أخيك إن كان مسافراً مع غيره، ولماذا تركب حماراً ولماذا تمتطي حصاناً، لماذا ترتدي ثوباً أبيض ولماذا تضع عمامة فوق رأسك، كم شخصا قابلت في طريقك وكم شخصاً لم تُقابل...

لم يتوقّف القتل رغم انتشار الجند ورغم تشديد الحراسة، وبعد أن كان الموت يُهاجم الناس في الليل أصبح يهاجمهم في الليل وفي وضح النهار. ارتبك الناس ولم يعد الواحد منهم يعرف ماذا يفعل

وكيف يُفسّر ما يجري حوله، فتركوا قصّة القتلة من شمال الأرض البعيد وصمتوا ثلاثة أشهر، ثم نسجوا قصّة أخرى، خليطاً لا أول له ولا آخر. وانتشر الرعب بين الناس وعمّت الفوضى، فبعث الوالي برسالة للخليفة يقول فيها إن المعادين لسلطانه قد وصلوا ولايته، وإنهم يعيثون في البلدة المخلصة لمقامه، وطلب منه رجالاً وأحصنة ليخمد نار الثورة قبل انتشارها، وذيلها بذكر المغول وهولاكو والأرض المحروقة خلفهم، وبعث برسالة للصّالح يطلب نصيحته. استجاب الخليفة وقد أوضح أنه يعلم عن تحرّكات المغول وعن انتشار الموت خلفهم، وأنه عليه هو الآخر أن يستعد لصدّ زحفهم، وأنه لهذا لا يستطيع أن يعينه بأكثر من خمسين رجلاً، ومثلهم سيوف وأحصنة ونوق، لعله يستطيع أن يخمد نار الثورة بهم. أما الصالح فقد اكتفى بالقول إنه لا يرى حلاً ولا طريقاً.

ندم الوالي على ذكره للمغول، وقضى التياح على العسكر حتى آخر رجل منهم.

بداية الأمر، هذا ما أعرفه على الأقل، كانت يوم أرسل الوالي بثلاثة أعوانه يطلب من الصالح أن يحضر وأن يُشارك في مجلسه، يومها شعر التياح بأن الوالي يكيد للصّالح ويحمل في قلبه ضغينة، وأحسّ بأنهم سيعودون، وأن عودتهم ستكون قريبة، وأن أعضاء ستُبتر ورؤوساً ستقطع، وأن رأس الصالح سيكون طعاماً للطيور، وما جعل التياح يتأكد أن في الأمر مكيدة وأن الوالي يعمل على التخلص من الصالح وعلى قطع رأسه، هو الحصان الذي أرسله الوالي هدية للصالح، فأصيل كهذا لا يُهدى ولو للخليفة في حدّ ذاته، فكيف يهديه للصّالح. والأعوان الثلاثة، خصوصاً كبيرهم، رآهم يتبادلون النظرات وينظرون إلى الصالح نظرة أحسّ التياح أنّها تحمل أحقاداً وكراهية، فبدأت صور الموت تملأ رأسه، نسوة يصرخن. بقايا رؤوس. وجوه مأكولة. رجال يدفعون عربات. جُثث أطفال. كلاب تنهش أحشاء. قطط تنتظر حلول الليل... وتذكر أمه، وماذا كانت تفعل مع الرجال، ونظرات زوجاتهم إليها، وكيف كانت تمسك بيده وتخرج مطأطئة الرأس عند رجوعهنّ، وأحسّ ببرودة يدها كما لو أنّها الآن تمسك يده، فبدأ جسده يرتعد ويُمنى عينيه ترتجف، فتملكه شعور بالرغبة أن يقتل ثلاثتهم، ولم يكن ليعجز عن ذبحهم سوية وفي اللحظة ذاتها، ولكنه أراد أن يسمع استجداءهم وأن يتحسّس ارتجاف أجسادهم، وشفاههم، الواحد تلو الآخر مرّة ومرّة ومرّة، أراد أن يرى كيف الخوف يأخذ مكان الحقد في أعينهم وأن يسمع زفرة الموت تخرج من صدر كل منهم. تمالك نفسه.

خلال أسبوعين، كان التياح قد حفظ خطوات كبيرهم، متى يستيقظ ومتى يخرج من بيته، أي الطرق يسلك ومن يُقابل فيها، من يُجالس وما هي وجبة إفطاره، ماذا يقول للبقال عندما يشتري حاجاته وكم يدفع ثمنها، كم من الوقت يقضي في قصر الوالي ومن يكون برفقته، متى يعود إلى بيته وفي أي ساعة ينكح زوجته، وحتى أنّه كان يعرف كيف يعتليها وكم من الوقت يقضي فوقها... كانت متعة الرجل وهو ينكح زوجته من خلفها، أن يمسك بشعرها ويشدّه كما يشدّ لجام حصان جامح، وبسوط من جلد النوق يضربها لتمشي على أربع وهو فوقها، ساعة بأكملها، يصرخ عليها وبسوطه يمزّق جلدها، والمسكينة تحته، تارة تصرخ من شدة الألم تارة تستجديه أن يرحمها، إلى أن يقضي حاجته وينقلب على ظهره كما قتيل، وبجانبه تتكوّر زوجته تتحسّس جروحها، تئنّ حتى الصباح. في أحدى المرّات كاد التياح يخلع باب بيت الرجل ويدخل يقتله في غرفة نومه، ولولا خوفه أن يُفضح أمره لذبحه أمام زوجته وأطفاله. في ذلك اليوم علا صراخ المرأة قبل موعد نكاحها، وبدا للتّياح كما صوت شاة تُذبح، فاقترب من النافذة يتبيّن سبب صُراخها، وإذ بالرجل

يمسك بقدميّ زوجته يُحاول أن يقطعهما بسيفه، وهي تنحني فوق يده المُلطخة بدمها تقبلها، تستحلفه بالله أن يُسامحها، وتقسم أنّها ما كانت لتخرج من البيت لولا أن أمّها أرسلت في طلبها، وأن أمّها ما كانت لترسل في طلبها لولا أن أباها الكسيح طلب رؤيتها، وأنّه ما كان ليفعل لولا أنّه شعر باقتراب أجله، وأنّها مع هذا، ما كانت لتخرج من دون إذنه لولا أن أخاها كان معها، وأنها...

بعد ساعة من الزمن، ترك الرجل سيفه وأمسك بشعر زوجته، وبدأ يجرّها خلفه، شاتماً أباها وأمّها، والمسكينة تستدعي الله أن يحميه من كل مكروه، وأن يحفظه لها ولأطفالها. جاب الغرفة مرّات ومرّات، وهي على أربع تجرجر نفسها خلفه، تُحاول اللحاق بخطواته، وبين الحين والحين يتوقف، يلتفت إليها ويركلها، حتى خارت قواها ولم يعد باستطاعتها أن تخطو خطوة واحدة أخرى. تركها ممدّدة على الأرض كما خرقة، غاب دقيقتين وعاد يحمل سوطه، ومن دون أن يكلمها، بل وقبل أن يقترب منها، خلعت ثيابها وتموضعت على أربع، كما علمها أن تفعل، وجهها ملتصق بالأرض، يداها ممدودتان أمامها ومؤخرتها مرتفعة في الهواء...

«غداً قبل المساء سأقطع قدميه وكفيه، وسأقطع رأسه وأجعله طعاماً للطيور»، قال التياح لنفسه وترك المكان. كان يرغب ألا يُغادر ويقضي ليلته هناك، عند النافذة، غير أن الحصان لم يأكل منذ يومين وروثه يملأ البيت.

عند الفجر كان التياح في طريقه إلى بيت الرجل، سكين على خصره وفأس بيُمناه، يقبض عليها كأنّما ترياق الحياة بيده.

ليس بعيداً عن البيت توقف ينتظر خروج الرجل، جلس بجانب رجلين يمسك كل منهما برسن بغله. صامتين كانا، ينظران إلى بيت الرجل، لم يلتفتا إليه ولا حتى هزا رأسيهما عندما طرح السلام عليهما.

كان الحي على غير عادته مليئاً بالحركة، رجالاً ونساء، وجميعهن بأسود، فأدرك التياح أن في الأمر موتاً وتشييع جُثمان، غير أنّه لم يفهم أن الموت في بيت الرجل، حتى عندما رأى النساء يدخلن بأعدادهن إلى البيت والرجال يتجمّعون أمامه. بعد ساعة من الزمن سمع صوت المؤذن يُعلن وفاة المرأة، فهمس أحد الرجال لشخص يجلس بجانبه، «إنّها الزوجة الثالثة التي تفارق حياتها تحت الرجل، وأنها لو كانت ناقة لما تحمّلت نصف ما فعله فوقها، وأن زوجة رابعة ستدخل البيت بعد الانتهاء من مراسيم الدفن، وأنّها ستكون تحت إمرته قبل حلول الليل، فمثل كبير أعوان الوالي لا يستطيع من دون سوط وصراخ وامرأة... صدق من لقّبه مزواج الحمير».

بعد أسبوع من وفاة المرأة، كان التياح يجلس فوق جثّة الرجل، ينظر إلى عينيه، يمسك عنقه بإحدى يديه وبالأخرى يرفع فأسه عالياً في الهواء ويهوي بها فوق رأسه، دقّه حتى هشّمه، ثم فصله عن جسده، وبسكينه قطع قدميه وكفيه، ولولا أنه سمع صوت أقدام تقترب لمزق جسد الرجل وأخرج أحشاءه.

ترك جثة الرجل وتوارى خلف الأشجار ريثما يبتعد المارّة، وقف يرتعد والدم يقطر من ثيابه، «لن يسمع صُراخ امرأة بعد اليوم، ولن يتلذذ على ألم أحد، وستتحوّل أحقاده إلى دود ينهش داخله. انتهى أمره، بقي اثنان»، قال التياح يُمسك بسرواله. ذلك كان أوّل رجل يقتله التياح.

كان الصالح يجلس مع رجل بدت ملامحه غريبة عن أهل المنطقة عندما وصل التياح إلى بيته، يرتدي عباءة بنيّة اللون من جلد الماعز، كوفيّة فوق رأسه وسيف من دون غمد على جنبه. والصالح، رغم الرياح والبرد، يجلس أمام الرجل من دون عباءته، ولا حتى عمامة فوق رأسه، وكعادته، كان يجلس منتصب الظهر مرفوع الرأس، وعيناه كما صقر ينظر إلى الرجل. اقترب التياح منهما يُحاول سماع حديثهما، كانت الريح شديدة والأشجار تتمايل تكاد تتكسّر جذوعها، فلم يتمكن التياح من السماع سوى كلمات متفرقات.

«ليس... خصوصاً وأن... «، سمع الصالح يقول.

«ولكنّه... وتعلم أنه...».

«نعم... و... لكنت...».

«... وهو... ليس أن...».

لم يفهم التياح من كلامهما شيئاً، ولم يكن له أن يقترب أكثر، فملابسه ملطخة بالدم، مُمزقة تكاد لا تُخفي جسده، غير أنه أحسّ بأن الأمر له علاقة بالوالي، وأن الخطر يحدق بالصالح.

«لماذا الوالي يضطرني إلى قتل أعوانه»، قال التياح لنفسه ودخل إلى البيت.

لم يخطئ التياح كثيراً في ظنّه، فقد كان الوالي شديد الظنّ بكل من يُخالفه الرأي أو لا ينزل عند رغبته، وكان عندما الشك يدخل قلبه، وتبدأ الشبهات تحوم حول أحد من أتباعه، يبدأ بالتنكيل به كما لو أنه قتل ابناً من أبنائه، وكان يُنزل أشدّ أنواع العقاب بأهله ومعارفه، وكان بعد أن يقتل منهم من يقتل، وبعد أن يكون قد جرّدهم من كبريائهم وأموالهم، يقوم بهدم بيوتهم وترحيلهم. ولو لم يكن للصالح أتباع كأتباعه، ولو لم يكن شأنه في البلاد قد وصل مثلما وصل، لقدّم الوالي جُثته طعاماً للكلاب. صغير أبناء الوالي وثلاثة أبناء أعيان كانوا يتبعون الصالح، أما أمّه فقد كانت تخاف أن تحلّ عليها اللعنة إن تسبّب ابنها بأذيّة للصّالح، والوالي ما كان ليفعل ما يثير حفيظة أهله وما كان ليجرؤ على فعل ما يُغضب أمّه.

دخل التياح إلى بيته، وضع طعاماً للحصان، أوقد ناراً ونام. لم يخلع ثيابه ولم يغتسل. أما الصالح، فقد قضى معظم ساعات الليل يتساءل عن رجوع التياح في ساعة متأخرة، وعن دخوله البيت، على غير عادته، من دون أن يكلمه وحتى من دون أن يسأل عن الرجل ولا عن أسباب جلوسه معه خارج البيت وفي ليلة عاصفة. ليس أن الصالح كان سيجيبه، ولكن التياح من عادته أن يُحاول.

بعد يومين، قبل طلوع الفجر، كان التياح في طريقه إلى بيت ثاني أعوان الوالي، المُسنّ، ذلك الذي كان يمتطي الحصان وأبى أن يمسك الرسن غير الصالح، يدعى أبا القواسم ويلقب بالتعس، يسكن أحد أحياء المدينة البعيد عن صخب الأسواق وضجيج العسكر، يقع في منطقة أطلق عليها الناس منذ القدم اسماً لا أحد يعرف مصدره، وأبداً لم يتمكن التياح من حفظه، أم البعابع كان اسمها، وكلما حاول التياح أن يتذكر الاسم كان عقله ينغلق أمامه ويتحوّل إلى غرفة مُحكمة الإغلاق مُظلمة. لم يكن التياح قد استعاد عافيته، ولم تكن جراحه قد التأمت بعد، مع هذا خرج من بيته يحمل سكينه وفأسه، ينوي ذبح أبا القواسم وتهشيم رأسه قبل حلول الليل. في طريقه رأى امرأة في الخمسين من عمرها تجلس وبجانبها ابنتاها، طفلتان صغيرتا الحجم، لم تتجاوزا العاشرة، تعرض من البقل ما

جمعت وابنتيها تحت المطر. جلس بجانبها يريح ساقيه ويتفقد جروحه، يُحاول أن يتذكر من أين يعرف المرأة وأين رآها من قبل. اقتربت إحدى الفتاتين منه تنظر إلى قدميه الداميتين، ثم عادت إلى أمّها وهمست في أذنها، فناولتها خرقة معطوبة، معقودة، وطلبت من التياح أن يمسح بها جراحه، «هي أعشاب جافة، مدقوقة»، أوضحت، «ممزوجة بثوم ورماد، وهذه خرقة مطهّرة بالنار». فعل التياح كقول المرأة من دون سؤال، كما لو أنه صغيرها، ثم اقترب منها يشكرها.

«لا عليك»، قالت، «لا داعي للشكر».

«لا أملك مالاً ولا شيئاً آخر أقدّمه»، قال لها يشعر باحمرار وجهه.

«لا أنتظر أجراً، ولستُ من يستحق الشكر... لستُ من جفّف العشب ودقه، ولست من مزجه بالثوم ولا من طهّر الخرقة».

«من جفّفها ودقها».

«زوجي، يحفظه الله لهاتين الطفلتين ويسهل طريقه».

«عطار زوجك، أم أنّه يعمل في صناعة الطب؟».

«لا هذا ولا ذاك، بل سائس يعمل عند الوالي، وهو يجفف العشب ويدقه لمن يحتاجه، هكذا لوجه الله».

عندها تذكر التياح من أين يعرف المرأة وأين رآها، هي زوجة أبي القواسم، الرجل الذي أتى ليفصل رأسه عن جسده. ارتبك التياح ولم يعرف كيف يخفي ارتباكه، تلفّت حوله ولم يجد ما يمسك انتباهه، ففتح فمه وتمتم بضع كلمات لا رابط بينها، ثم أضاف إنه الله لا يُحمد على مكروه سواه. فرفعت المرأة وجهها إلى السماء، «ربي لا أسألك ردّ القضاء، بل لطفك»، قالت ونظرت إلى التياح كأنها أدركت أن يوم القضاء قريب.

ازدادت آلام التياح وتصلبت قدماه حتى شعر أن الدم يتجمّد في عروقه، وانتفخت أطراف أصابعه وبدأ العرق يسيل من كل جسده. لحسن حظه، مر أحد أتباع الصالح في المكان، وتوقف بعض المارة يسألون المرأة عن بقلها.

ثلاثة أيّام والتياح يُصارع نفسه، لا يعرف ماذا يفعل، هل يقتل أبا القواسم أم يبقي على حياته... تارة يتخيله مقطوع الرأس ممزّق الجسد، وأخرى يتساءل عما سيحدث مع ابنتيه وزوجته إن هو هشم رأسه. تارة يتذكر كيف كانوا ينظرون إلى الصالح والحقد بأعينهم، وكيف أبى أبو القواسم أن يمسك رسن الحصان غير الصالح، وأخرى يتذكر قول زوجته إنّه يُجفف العشب ويدقه لمن يحتاجه، وأنه يفعل ما يفعل لوجه الله. يتذكر أن أبا القواسم كان يقف أمام الصالح كما لو أنّه رسول من ملك الملوك، وبيده أن يهب الحياة وبيده أن ينهيها، فتثور ثائرته، ويبدأ يخطط لقتله، وكيف سيُخرج أحشاءه وكيف سيدوس فوق عنقه، ويدق رأسه... وتأتيه صور ابنتيه تبكيان أمام أبيهما وهو ممدّد لا رأس له ولا أطراف، فيهدأ ويستغفر ربّه.

كان كلما تخيل رأس أبي القواسم مقطوعاً، يرى سرباً من الغربان يحلق فوق الجُثة، تحوم الغربان دوائر دوائر ثم يهبط الواحد تلو الأخر فوقها كأنّما يحط على غصن شجرة، تقف مصطفة فوق الجُثة في خط مستقيم، لا تأكل من الجُثة لا تنهشها، وسرب آخر يحط فوق رأسه، يأكل من وجهه،

فيضع التياح يديه على عينيه ويُغمضهما، يشدّهما، يُحاول أن يُبدّل الصور ويُزيلها، والصور تأبى أن تتبدّل وأن تزول، يُحرّك يديه يبعد الغربان كأن رأس أبي القواسم أمامه، والغربان كلما حرّك يديه أكثر كما ازداد نهشها وتسارعت نقراتها أكثر، ويبدأ عظم وجهه يظهر، فتأتيه صورة ابنتيه تبكيان، وتختفي الغربان...

«ربّما زوجته كانت تكذب»، قال التياح فجر اليوم الرابع لنفسه، «ربّما أبو القواسم لا يجفّف العشب ولا يدقه، وربما أبو القواسم كريه كما غيره»، وخرج من بيته يتجه إلى حيث رأى ابنتيه وزوجته.

كان الطقس بارداً وغيوم سوداء تملأ السماء، والناس، على قلتهم في الطريق، كانوا يصطدمون ببعضهم من شدة الرياح، أما التياح، ورغم أنه لم يكن قد تعافى تماما بعد، فقد كان يمشي يُقاوم الريح كما دابّة، رأسه مدفوع إلى الأمام، يمسك بعباءته يشدّها حول جسده، يفكر بالأسئلة التي سيسألها لزوجة أبي القواسم. بعد ساعة من السير أو بضع ساعة وصل، وفي جعبته الكثير من الأسئلة التي لا تثير الريبة. كان المكان خالياً سوى من بعض المشرّدين وبائع متجول واحد. لم يفطن أن الوقت لا يزال باكراً، وأنّه بمثل هذا الوقت وهذه الساعة، لا يكون خارج بيته سوى من قضى ليلته في خمّارة أو بيت دعارة، فأمسك القلق قلبه وعقله.

«أين الباعة والناس»، تساءل وقد بدأ الغضب يسيطر عليه، «أي واقعة وقعت حتى يمسك المعدمين عن الخروج من منازلهم؟ هل هو الوالي؟ ماذا تراه فعل؟ هل يحتاج لمزيد من الدماء، ألم يرتو بعد؟ لو أستطيع قتله لفعلت، وسأدوس على وجهه وسأبول فوق رأسه وفي فمه، ولكنّه ينام بين مائة حارس وحارس. غير أني سأذبح جميع أعوانه، سأدق عنق أبي القواسم وأعناق كل من حوله، وسأمزّق أجسادهم وأجعلها طعاماً للأفاعي...».

وفيما كان يفكر ويتخيل كيف سيذبح أعوان الوالي وحاشيته وأقرباءه، بدأ الناس يخرجون من منازلهم، رجالاً ونساء وأطفالاً، والباعة يجرون عرباتهم ينادون، وإبل وقطعان من الماعز وأصوات حمير تنهق. عندها تذكر أنه خرج من بيته قبل طلوع الشمس، وأنّه عندما خرج من بيته لم ير الصالح ولا أحداً من أتباعه، وأنه لم يسمع أصوات العصافير ولا مواء قطط. تنفس الصعداء يُحاول أن يهدأ، وجلس ينتظر قدوم زوجة أبي القواسم وابنتيها، يسمع نبضات قلبه، يشعر باحمرار وجهه وبالدم ينحبس أعلى رأسه. «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم»، قال وفتح فمه يملأ رئتيه بالهواء، «ما بالك، ستفقد رشدك إن بقيت على هذا الحال، وسترتكب من الحماقات ما يفضح أمرك، وعندها سينتف الوالي جلدك وشعر رأسك».

بعد قليل، شعر بحبّات من المطر تسقط فوق رأسه، فقام يبحث عن مكان يتّقي المطر ريثما يأتين. عند الظهر تقريباً، أتت المرأة وبرفقتها ابنتاها، وضعت ما جمعنه من بقل وذهبت، فاقترب التياح من الفتاتين يسألهما عن حالهما ولماذا غادرت أمّهما.

«أبي طريح الفراش ويحتاج لمن يرعاه»، قالت كبراهن تجفّف دموعها بطرف منديلها، نحيفة الوجه بيضاء، عيناها سوداوان، وشعرها ضفيرة ممتدة حتى خاصرتها.

«ألا يستطيع الاعتناء بنفسه؟».

«لا، وأنتَ، هل التأمت جراحك؟».

«نحمد الله الذي لا يحمد على مكروه سواه».

«هل تحتاج لمزيد من دقيق العشب؟» سألته الأخرى، تشبه أختها، عدا عينيها، الواسعتين بلون العسل.

«لا، جئت أسأل لأطمئن عليكما».

«نحمد الله الذي لا يحمد على مكروه سواه»، رددت كبراهن قول التياح وابتسمت، فبانت أسنانها، صغيرة بيضاء كما الثلج.

«وأبوكما؟ ».

«سيتحسّن حاله بإذن الله».

رغب التياح أن يسأل عن أبيهما وكيف يعاملهما، وإذا كان كما قالت أمّهما يفعل لوجه الله أم أنّه وغد وابن كلب، غير أنه لم يفعل لئلا ترتاب الفتاتان بأمره، ثم أنّهما تبدوان متكتمتين لا تبيحان بشيء يتعلق بأبويهما، فتركهما وعاد إلى بيته، مبعثر الأفكار تائهاً أكثر مما كان.

مكث التياح في بيته أسبوعاً آخر، لا يتكلم ولا يتحدّث مع أحد، يفكر ماذا عليه أن يفعل، لا هو قادر على اتخاذ قرار بقتله ولا بتركه لابنتيه وزوجته، وليس باستطاعته أن يسأل الصالح ولا غيره. قال أخرج مرة أخرى، لعلّي أجد زوجته أو أحداً يُخبرني بأمره. عند منتصف النهار خرج من بيته، عند المغيب عاد، لا شيء لا جديد، سوى أن أبا القواسم استعاد عافيته، وزوجته فرحة به كما لو أنها هي من استعادت عافيتها.

بعد ثلاثة أيام، عند منتصف الليل تقريباً، خرج التياح من بيته، يأخذ طريقه إلى بيت أبي القواسم. مع أوّل خيوط الضوء كان يمشي خلفه، عند المساء كان يجلس فوقه.

في الحقيقة لا أعرف ماذا كان في تلك الليلة، لا أعرف لماذا استيقظ في منتصف الليل، ولماذا أخذ قراره بأن يقضي على أبي القواسم رغم أنه كان قد قرّر أن يبقي على حياته من أجل ابنتيه وزوجته. كل ما أعرفه أن التياح استيقظ في تلك الليلة فزعاً، وأنه خرج من بيته بعد أن وضع ماء ورطلاً من القمح للحصان، خوف أن يتأخر عليه أو أن لا يعود، وأعرف أنه حاول أن يكتب رسالة للصّالح يفسّر له فيها لماذا يقتل ولم ينجح أن يكتب ولو حرفاً واحداً، وأنّه عندما خرج من البيت، لم يأخذ معه سكينه ولا فأسه، أو أنه أخذ سكينه ولكن ليس فأسه.

أن يحمل فأساً ويخرج في عتمة الليل، سيثير ريبة من لا تُثار ريبته، وما كان التياح ليخشى أن يُكتشف أمره خوفاً على عنقه، بل خوفاً من عذاب الصلب، فليس منذ زمن بعيد حدّثه أحد أتباع الصالح عن الخليفة المقتدر بالله وكيف قطع أطراف الحلاج قبل صلبه، لأنه قال أنا الحق، وحدّثه أنه سمع قصة أخرى مفادها أن الحلاج كان على علاقة بأخت المقتدر ولهذا قام بصلبه، وثالثة تقول إن المقتدر لم يبال لقول الحلاج أنا الحق ولا لعلاقته مع أخته، وإنما لحديث الحلاج في أمور الساسة والحكم، فأوعز لقاضي بغداد أن يرفع أمره للقضاء، وأن تجري محاكمته أمام الناس والفقهاء، وأن يحكم عليه بالموت صلباً. وهكذا كان، ومات الحلاج مصلوباً بعد أن قطعوا أربعة أطرافه. في ذلك اليوم، سأل الصالح إن كان ابتعاده عن القصر خوف أن يفعل الوالي معه مثلما فعل المقتدر مع الحلاج. «لم يكن الحلاج قريباً من القصر، ولا ممّن يرتاد بلاطه»، أجابه الصالح، «كما نحن الآن، والمقتدر بالله ما كان يخشى الحلاج لولا اهتمام الناس بالكلمة».

هذا ما أعرفه عن تلك الليلة، ولا أعرف إن كان أحد يعرف أكثر، حتى التياح ذاته... كما ولا أعرف كيف قام التياح بقتل أبي القواسم، ليس تفصيلاً على كل حال. كل ما علمته أن أبا القواسم خرج في ذلك اليوم، على غير عادته، مع أول خيوط الشمس، وأنّه خرج في تلك الساعة لقضاء مهمة أوكلها له الوالي في حيّ يبعد عن مكان سكناهم قدر ساعة سير بطيء، وأنه كان عليه أن يقضي حاجة الوالي قبل بلوغ الصبح، وعلمتُ أنّه بعد أن أنهى مهمته عاد إلى البيت وتناول طعام الإفطار مع زوجته وأطفاله، ومن بعدها خرج ثانية لقضاء بعض الحاجات لبيته، ولم يعد.

في الحقيقة، هنالك أمور أخرى لا أعرفها عن التياح وعن غيره، بل وهنالك أمور لست على يقين من حقيقتها، ولولا رفيق دربي أبي المرزوق، رحمة الله عليه، لا أعلم إن كنت سأذكر التياح أو قصصاً لا أعرف تمام المعرفة صاحبها. ليس أني لم أحاول معرفة المزيد عن حياة التياح وعن غيره، ولي طرقي في تقصّي الأمور ومعرفة خفايا النفوس، غير أن النجاح لم يكن من نصيبي هذه المرّة، وما أقصّه هنا، هو كل ما أعلمه ووصلت إليه. كان بإمكاني أن أتمّم من عندي ما ينقص، وكان بإمكاني أن أجعل من قصة التياح مع أبي القواسم، قصّة في غاية التشويق، غير أني بعد أن سألتُ أبا المرزوق وقال لي ما قاله، وعدته أن اتبع الصراحة والصدق.

يوم حدّثت أبا المرزوق بهذا الأمر، قال «يا أحمدي، إنّك على علم بمعظم تفاصيل الرواية، أنت تعلم عن حياة الصالح أكثر ممّا يعلم أبواه وربما أكثر مما يعلم هو عن نفسه، وحتى أنّك رأيته وتحدّثت معه، وقابلت التياح أكثر من مرة، ولا ينقصك سوى بعض الشيء عن حياته، ولا ضرر في ذلك». قلتُ «لا بد من الأمانة في القصّة، ولا أستطيع البوح بعدم معرفتي». قال، «لا أحد يعرف خير الصدق مثل ما تعرف، والتياح جزء من القصّة، ولا تستطيع عدم ذكره».

لم أر في حياتي أصدق من أبي المرزوق ولا أكثر صراحة منه، ومع هذا فقد كان يُفضل السكوت إن كان في الصدق أذيّة، بينما الصالح، وآخرون مثله، فلا يقولون سوى الصدق ولا يتفوهون إلا بما يعلمون ولو كان بعد قولهم دمار.

بالنسبة لي، أفضل طريق أبي المرزوق عن طريق الصالح، وأعتقد أن أبا المرزوق يعلم بهذا رغم أني لم أبح له بالأمر، ولطالما تظاهرت أمامه بأني من أنصار الصدق، ولا أستطيع غيره. فيوم صارحته بعدم معرفتي بتفاصيل حياة التياح، وكعادة أصحاب الطرق قال إنه لا طريق واحدة، أتى رجل يسأله ماذا يفعل مع زوجته وقد وصله خبر أنّها تزني مع أعز أصدقائه، سأله أبو المرزوق إن كان لديه شهادة من أربعة، فقال الرجل إنّ لديه ثلاثة، رجلان وامرأة، وجميعهم يؤكدون الفعل. فقال له إن شريعة الله تطلب أربعة ذكور مجتمعين على الشهادة نفسها، لا ثلاثة، وأنه على الأربعة أن يشهدوا بأن خيطاً لم يكن ليمرّ بين زوجته وصديقه، عليهم أن يشهدوا بأنهما كانا عاريين كما ولدا، وأنهما كانا ملتصقين كما جسد برأسين، ثم سأل الرجل إن كان هذا ما كان مع زوجته.

استقام ظهر الرجل وصفا لون وجهه وهو يُجيب أبا المرزوق بأن شيئاً من هذا لم يكن، وقال إن زوجته أقسمت بنبيّ الله وبحياة أطفالها الستة أنّها لا تعرف غيره، وأنّها يوماً لم تفعل.

كنت أعلم أن أبا المرزوق على علم بأمر المرأة وصديق الزوج، وأنه كان قد رآهما سوية في أحد الأحراش، عاريين وخيط لا يمرّ بينهما، فقلت لأبي المرزوق إنه الشاهد الرابع، وكان بإمكانه أن ينهي مأساة الرجل، وأن الصالح كان سيدلي بما يعلم ولو كان بعد ذلك دمار، فقال إنه لكل إنسان طريقه، وإن الرجل ما كان يرغب أن يسمع شيئاً آخر، ولو أراد أن يعرف حقيقة زوجته، ما كان

يسأل أبا المرزوق ولا غيره، بل كان يلاحقها ويراقبها. ولتأكيد فهمه، قال إني لم أر كيف انفرجت أسارير الرجل عندما قال له إن شريعة الله تطلب أربعة ذكور مجتمعين على الشهادة نفسها.

وكعادتنا عندما نتحدّث عن اختلاف الطرق، قصصتُ على أبي المرزوق قصّة عبد القادر الجيلاني وهو شاب في مقتبل عمره، عندما كان فتى يود السفر إلى بغداد وقبل خروجه من بيته أوصته أمه بأن لا يكذب فإن المؤمن لا يكذب أبداً. وغادرت القافلة متجهة إلى بغداد، وبعد أن قطعت نصف الطريق، فوجئت بجماعة من قطّاع الطرق واللصوص يحيطون بها من كل الجهات. وبدأ اللصوص يفتشون أفراد القافلة فرداً فرداً، يأخذون منهم ما خفّ وزنه وغلا ثمنه، وجلس عبد القادر ينتظر دوره في التفتيش، إلى أن وصل أحد اللصوص إليه، فرآه فتى صغيراً لم تنبت لحيته بعد، يرتدي ثياباً بسيطة، ولا تدل هيئته على ثروة ولا جاه، فأراد أن يمرّ به مر الكرام ويتجاوز إلى غيره، ولكنه ألقى عليه السؤال الذي كان يلقيه على الآخرين، وتابع خطاه لأنه كان متيقناً من الإجابة، ولكن جواب عبد القادر جعله يتسمّر في مكانه، ويفتح فمه من شدّة دهشته، فأعاد عبد القادر قوله، «نعم، معي أربعون ديناراً». ظن اللصّ أن الفتى يستهزئ به فأخذه إلى رئيسهم. وأعاد رئيس الجماعة عليه السؤال، وأعاد عبد القادر الجواب نفسه. فسأله رئيس الجماعة عن مكانها، فأخرجها عبد القادر من تحت إبطه، وعدّها أمامه أربعين قطعة، فسأله رئيس الجماعة ما الذي يدفعه إلى الاعتراف بها وهي مخبأة في مكان أمين، وهم ما كانوا يظنون أنه يملك شيئاً. فقال له عبد القادر إن أمّه أوصته أن يقول الصدق أبداً، وأن لا يكذب مهما كان».

«قلت إن اللصّوص سألوا الشيخ عبد القادر إن كان يملك دراهم أو غيرها»، قال أبو المرزوق يبتسم، «أما الرجل فلم يسأل عن معرفتي بزوجته ولا إن كنت رأيتها تحت صديقه».

«وإن سألك، هل كنت تبوح بما تعلم؟».

«سمعت أن ملكاً من ملوك قدماء العرب»، قال أبو المرزوق وقد اتسعت ابتسامته وبانت أسنانه الصفراء، «أراد أن يختار ابناً من أبنائه الثلاثة خلفاً يحكم من بعده، وكان من عادة ملوك العرب قبل مجيء من اصطفاه الله من بين خلقه، أن يختاروا خلفاً يمتاز بحكمته وكرمه وضربة سيفه. قال الملك لأبنائه، إن الحكمة أخير من الكرم ومن السيف، فمن دونها يفنى المال، ومن لا يعرف أين وجهة سيفه، تُسبَ نساؤه وتتناثر رؤوس رجاله. كما هذه الرمال.

سؤالاً أسأل، وأحكمكم خلفي، يحكم من بعدي، لكم أن تقضوا يومين قبل إجابتي. ماذا أنتم فاعلون إن كان يوم ووجدتم ذهباً كيل بعير؟

لجأ كل منهم إلى أمّه يسأل رأيها، قالت الأولى، وقد كانت من قبيلة أسد بن خزيمة، من يجد شيئاً يأخذه. وقالت الثانية، وكانت من بني أميّة، من يجد شيئاً يردّه إلى مالكه، فهو لا بد يبحث عنه. أما الثالثة، وهي من بني عامر بن صعصعة، فسألت ابنها إن كان يعلم ماذا يكون الحال حينها. قال إنه لا يعلم، ولا حتى أباه الملك بإمكانه أن يعلم. فقالت له إن أباك الملك يسأل عمّا لا إجابة له.

بعد يومين عادوا إلى والدهم، وأعاد كل منهم قول أمّه أمامه، فصرف الأول بعد أن قال له إن الإنسان لا يأخذ كل ما يجد، فقد يكون الكيل والبعير لأخ له. وقال للثاني، لا يرد الإنسان كل ما يجد لمالكه، فقد يكون المالك قاتل أبيه وأمّه، وقد يكون قد قضى نحبه. وقال للثالث، لك الملك من بعدي إن لم تمنع الأقدار».

«وهل كان الملك له؟».

«لا، فقد أخذته المنيّة قبل أبيه».

«تعلم، أبا المرزوق، أن عرباً ثموديين سكنوا قلب الجزيرة مئات من السنين، يقال إن بعضاً منهم عايش المصطفى...»، بهذه الكلمات بدأت أقصّ على أبي المرزوق قصّة تفيد بعكس ما أفادت قصّته، والقصّة لا علاقة لها بالثموديين، سوى أن أحداثها دارت حيث عاشوا. ولم أنجح، رغم محاولاتي، أن أوضح له سبب ذكري لهم ولا أن أربط بين أحداث القصّة، فجاءت مبعثرة لا أول لها ولا آخر.

أدرك أبو المرزوق محنتي، وكعادته في مثل هذه الحالة، وضع كف يده على ركبتي، وقال إن صديقاً له أتى المدينة قبل يومين ولم يره بعد، وأنه يرغب بلقائه، وغادرني.

بعد شهرين أو أكثر، وجدت أبا المرزوق يُعاين ألواحاً وشظايا من الحجر، بعضها منقوشة بأحرف ثمودية وبعضها بأحرف لحيانية، يقارن بين أشكالها، يُحاول أن يقف على تشابهها وعلى الاختلاف بينها، تارة يغرق بالتفكير تارة يُمسك بخاصرتيه من كثرة الضحك. جلستُ بجانبه أتبيّن سبب ذهوله وضحكه. قال «ما كنت أعلم الكثير عنهم عند ذكرك لهم أمامي، يقال إنهم كما سائر العرب، كانوا أشداء وذوي علم قليل، غير أني أعتقد، والله أعلم منا بالحقيقة، أن أجمع العرب، كانوا على علم كثير».

«من أين لك فكّ الحرف عندهم؟».

«من يرغب العلم بشيء يعلمه»، قال، «تعلم أن الأشهر عند العرب، قبل الدعوة المحمودة، لم تكن دوّارة في السنة كما هي الآن عندنا، وقد حافظوا على ثبات الأشهر ومواعيدها تباعاً للأحوال. فأخذت عندهم أسماءها نسبة لتقلبات الطبيعة في كل شهر وشهر من أشهر السنة، فكان شتاؤهم أبداً في جمادي الأول وجمادي الآخرة، ففي هذين الشهرين يجمد الماء ولهذا سمّوهم بهذا الاسم. وكان صيفهم دائماً وأبداً في رمضان، وذلك لشدة الحرّ في تلك الفترة من السنة. بل إن العرب لم يكتفوا بتفصيل حالات الطبيعة، فقد كان للشّهور عندهم أسماء أخرى، مثل المؤتمر والناجر وخوان، والتي تدل على حال الحياة في حال الطبيعة من كل شهر، فالمؤتمر معناه أن يأتمر بكل شيء مما يأتي به السنة من أقضيتها، وكانوا يسمّون شهري الشتاء الخالص شهري قمّاح، لأن الإبل ترفع رؤوسها عند الماء لشدة برده، وكانوا يسمّون شهري القيظ شهري ناجر، لأن الإبل تشرب، فلا تكاد تروى لشدة الحر. وكان لكل ثلاث ليال في الشهر اسم خاص بها، فالثلاث الأولى: غرر. والثانية: نفل، لأن الغُرَرَ كانت أصلاً وهذه زيادة عليها، والثالثة: بُهرٌ، يغلب فيها ضوء القمر ضوء النجوم، والرابعة: زُهرٌ، لبياضها، والخامسة: بيضٌ، لأن القمر يطلع فيها من أولها إلى آخرها، والسادسة: دُرَعٌ، لسواد أوائلها وبياض سائرها، والسابعة: ظلم، لغلبة السواد عليها، والثامنة: حَنادسُ، لشدة سوادهن، والتاسعة: مِحاقٌ، يَمَّحِقُ فيها الهلال، والعاشرة: الدادء، والدأدأة شدة الظلمة، وفيها يستسر القمر ليلة أو ليلتين، فلا يُرى غدوة ولا عشية، وتسمى ليلة الثامن والعشرين الدعجاء، والتاسع والعشرين الدهماء، والثلاثين الليلاء، وهي الثلاث الدادءُ».

رحمة الله عليه، وأطال الله بعمر أبنائه ويسّر سُبلهم. لم يغب عني ولم يُفارقني منذ وفاته.

في ذلك اليوم، حدثني عن أمور العرب وعن كثرة معرفتهم ستة ساعات بأكملها، لم يتوقف عن الحديث خلالها ولو دقيقة واحدة.

8

ثلاثة أشهر وأبو القواسم يأتي التياح في منامه، وابنتاه وزوجته، يرى أربعتهم يجلسون حول مائدة مستديرة، واسعة بحجم حظيرة، مليئة بأطباق ملوّنة فارغة، سوى طبقين أو ثلاثة، عند الوسط، تحوي فتات خبز وأسماكاً. يمدّون أيديهم يُحاولون الوصول إلى الأطباق ولا ينجحون، يقتربون من المائدة أكثر، لا تصل أيديهم، يحنون أجسادهم فوق المائدة، فينقلب الخبز حجارة والأسماك عيداناً، يدورون حول المائدة يدعون الله أن يعيد الخبز خبزاً والأسماك أسماكاً، فتتّسع المائدة وتصغر الأطباق... حتى تختفي. ثلاثة أشهر والصور لا تفارقه، ليلة تلو الأخرى، فأخذ يهتم بزوجة أبي القواسم وأطفاله، خصوصاً طفلتيه، وبدأ يبتعد عن الناس كلما عزم على قتل أحد، كان يتفادى لقاء الناس أسبوعاً وإن لزم الأمر أكثر، حتى يأتي أجل ضحيته. لم تغادره الصور ولا تبدّلت.

وذات ليلة، والتياح يرى أبا القواسم وزوجته وابنتيه يدورون حول المائدة، يدعون الله أن يعيد الخبز خبزاً والأسماك أسماكاً، سمع وقع أقدام حصان يدور حول بيت الصالح وعند نافذة بيته، فاستيقظ مفزوعاً من نومه، وبدأ يستغفر ربه ويدعوه أن يعفو عنه ويبعد أبا القواسم وغيره من أحلامه، وقام من سريره ينظر من النافذة آملاً أن يكون الحصان لمريض أتى الصالح ليعالجه، فلا يضطر أن يقتل أحداً في تلك الليلة. لم ير شيئاً. خرج من بيته ودار حول بيت الصالح، لا شيء سوى الصوت.

لم يكن التياح وحده الذي سمع وقع أقدام الحصان في تلك الليلة، ومن بعدها كل ليلة، ولم يكن أهل الحي وحدهم الذين سمعوا، لم يبق أحد من أهل البلدة إلا وسمع وقع الأقدام عند نوافذ بيته. غير أن أحداً منهم لم يجرؤ على الخروج من بيته ليتبيّن مصدر الصوت، أو النظر من نافذة بيته، وحتى أنهم مكثوا في أسرّتهم مستلقين على ظهورهم وكأن الأمر لا يعنيهم، يصغون ويتساءلون من لعله يكون وماذا لعله يريد.

وحده التياح خرج من بيته في تلك الليلة، ووحده الصالح كان يمشي في شوارع البلدة.

كان الوقت بين منتصف الليل والفجر، والصالح يمشي يتنقل بين الأحياء، وطرقات الحوافر ترافقه، تتنقل معه... عند الفجر، عاد الصالح إلى بيته، وابتعد الصوت وتلاشى في الفضاء.

وبدأ الناس، كما عادتهم، يخلقون القصص والحكايات، يتناقلونها بينهم، يبدلون في تفاصيلها كما يروق لخيالهم. قالوا إن الفارس ضخم الجسد أثقل من ناقة، له قرنان كما ثور، ورأسه بحجم صخرة، جاء يعين الوالي ليخلصه من أعدائه. وقالوا إنه جاء ليخلص الناس من القاتل ومن طغيان الوالي وشروره. وقالوا إنه شيطان رجيم وقالوا إنه من أولياء الله الصالحين. وقالوا إن الحصان صعد إلى السماء وثلاثة ملائكة ترافقه، وإن الملائكة كانت تسبّح ربها، وإن صوتها أعذب من خرير ماء. وقالوا إن الملائكة لم تصعد معه، بل كانت تُحاول أن تمنع صعوده، ولكنها لم تنجح. وقالوا إن الملائكة نجحت، ومنعت صعود الحصان وقبضت على فارسه، وإن الحصان يذوب كل صباح ويتبخّر كما ماء، وإنه يعود ويتشكل في الليل من جديد، يجوب البلدة يبحث عن فارسه، وعندما يجده سيُغادر المكان إلى الأبد.

وتغيّرت التفاصيل وتبدّلت القصص، وأصبح الناس لا شاغل لهم سوى الحصان والفارس، هذا يضيف وذاك ينقص، وآخر يُعدّل. وتضاربت القصص وكثرت الآراء. إلى أن حدث وكان الصالح ذات ليلة يُحدّث أتباعه وجمعاً غفيراً من الناس، وفيما هو يُحدّثهم، سمعوا صوت أقدام الحصان يدور حولهم، فرفع الصالح يده يُشير للصوت أن يتوقف... فاختفى الصوت، وخيّم الصمت على البلدة بأكملها ثلاثة أيام.

لم يكمل الصالح حديثه في تلك الليلة، ولم يكن بإمكانه أن يفعل وقد رأى الناس وكيف أخذهم الذهول والخوف. وفي تلك الليلة، وليلتين من بعدها، لم يقتل التياح أحداً.

بعد ثلاثة أيام، بعد صلاة المغرب، خرج الصالح إلى الناس، وكانوا يجلسون أمام بيته، يتحدّثون عنه وكيف أشار بيده فاختفى الصوت، وخيّم الصمت على الأرض وفي السماء، وأن الحرّ والسكون مُمسكان من تلك الساعة بكل شيء، ولو أراد الصالح لجعل الأرض وهجاً ولو أراد لجعلها تجمد في صقيعها... ليس في الأرض من هو بعلمه وحكمته.

«هو الحقّ»، قال الصالح يرى الناس يطأطئون رؤوسهم خشوعاً أمامه، «يعلم ما في النفوس، له الملك والكلمة، له الطريق وله الحُكم.

الله لا إله غيره.

هو الحقّ.

يُحدّد الأقدار، يقسّم الأرزاق، ولا اعتراض على حكمه.

فمن الناس من يمدّه في طغيانه، ومنهم من يمهله ومنهم من يقضي بأمره في ساعته. ومن الناس من يمكنه في الأرض يقتات من خيره، ومنهم من يجعله يطوف في أرض لا زرع فيها ولا طير. ومن الناس من يختاره رسولاً من رسله، ومنهم من يختاره ولياً من أوليائه.

ومن الناس من يمدّه بحكمة وبعلم من علمه.

الله لا حمد إلا له.

هو الوهّاب، ولا شيء إلا بإذنه»، قال الصالح مُنهياً كلامه وغادرهم، وعلا صوت الناس وقد عادوا يتحدّثون عن حكمة الصالح وعن علمه، وأنّه لو أراد، لجعل الجبال تمشي أمامه كما جعل الضرير يُبصر والأبكم يخطب والأصم يسمع دبيب النمل وطير الفراشات. وأخذوا يردّدون اسمه، ودموعهم كانت تنهمر كما أرامل ثكالى.

بعد أن أنهى الصالح حديثه وغادر، والناس علت أصواتهم وقد أخذ الهياج منهم مأخذه، شعر التياح بصداع يمسك نصف رأسه، وبألم عند أسفل ظهره. نظر حوله يستأذن من يجلس معهم، وكان أغلب الناس في غيبتهم، فتمتم بضع كلمات وغادر إلى بيته، يسند ظهره بيد وبالأخرى يُمسك سرواله، يشعر بانقباض لا يعرف سببه، ويتساءل ماذا أصاب رأسه، فألم الظهر، خصوصاً عند أسفله، يعاني منه منذ أن كان طفلاً يعمل مع أمّه في الحقول، أما ألم الرأس هذا فأبداً لم يُصب به وحتى أنه لا يعرف أحداً أصابه. دخل إلى بيته، وضع طعاماً وماء للحصان، أوقد ناراً ونام ليلتين متتاليتين. لم يخلع ثيابه ولم يغتسل.

9

«كليم الله، نبي بني إسرائيل»، جاء صوت في تلك الليلة يُذكر الصالح بقصّة موسى عليه السلام، «عندما سأله شعبه إن كان في الأرض من هو عليم مثله، وأجابهم بأنه أعلم من في الأرض، بعث الله بجبريل يسأله من أين يعلم أين يضع الله علمه».

لم يقل الصوت أكثر، ولا قصّ عليه القصّة بكاملها، فالصالح يعرفها ويعلم تمام العلم معانيها. ولا حاجة لأن أقصصها هنا، فأكثر الناس يعرفون ما أوحي من قصص الأقدمين على آخر المرسلين، محمد صلى الله عليه وعلى أزواجه وعلى صحبه أجمعين.

استيقظ الصالح وأخذ يذكر من الكلمات المنزلات آيات يستغفر بها ربّه. كان الليل في منتصفه، والناس ما زالوا يجلسون أمام بيته، يردّدون اسمه، وصوت بكائهم يعلو ودموعهم تنهمر. قام من سريره، وسار نحو النافذة، فرأى أجساداً ورؤوساً تتمايل، وأصوات الناس كان يسمع صداها يرتطم بجدران غرفته. أخذ يتنقّل بين سريره ونافذته، يمشي في الحلكة يردّد أسماء الله ولا يرى حوله. عند شروق الشمس، عاد إلى سريره ينام.

«كليم الله، موسى عليه السلام، نبيّ بني إسرائيل»، جاءه الصوت مرة أخرى، «غادر أرضه يبحث عن عبد عالم من عبيد الله، يعزم أن يجول الأرض أو يسافر أحقاباً حتى يجده، ويأخذ من علمه...».

انتفض الصالح كما لو أنه رأى ثعباناً بسبعين رأساً ينقض على عنقه، جلس في سريره يشعر بألم شديد في صدره وعند حنجرته، يتساءل ماذا لعله يفعل تكفيراً عن خطيئة لا يعرف كيف اقترفها، فهو الصالح خير من يعلم أنه الله عصيّ عن الإدراك، وأنه الإنسان لا يعلم أين يضع الله أكثر حكمته وعلمه. «الإنسان خطاء بطبعه»، قال لنفسه يُحاول يهدأ، «وموسى عليه السلام أخطأ من قبلي خطئي، وما أنا بأفضل منه، ولا من سيّد المرسلين وقد أنزل الله به تنزيله... عبس وتولى. الله لا إله إلا أنت، اغفر لي ذنوبي واجعلني من الصالحين...»، وكان الناس يردّدون اسمه، وصوت بكائهم ما زال يعلو ودموعهم ما زالت تنهمر، ولم يعد يسمع كلماته، وكلما كان يرفع صوته كان صوت الناس يعلو فوقه، وحتى أن الدمع ينزلق على وجوههم كان يسمعه، أو هكذا بدا له.

أمسك بكتاب الله وأخذ يقرأ، قرأ الفاتحة ومن ثم سورة البقرة ومن بعدها آل عمران والنساء... وعندما اقترب من سورة الكهف وقصّة كليم الله مع العبد العالم، سالت دموعه وابتلت ملابسه بالعرق، وارتعد صوته وجسده بدأ يرتجف، فتوقف عن القراءة وبدأ يذكر أسماء الله حتى هدأت نفسه وعاد جسده إلى حاله.

كان الوقت عشاء، وكان الصالح متعباً والسكون مطبقاً ولا حراك ولا حركة. أمسك بكتاب الله ثانية، وبدأ يقرأ سورة الكهف مرة تلو المرّة، ثلاثين مرة، ودموعه كما سيل كانت تنهمر.

عند الصباح، خرج إليهم.

«هو الله»، قال الصالح يرى الناس في حضرته يطوفون، «هو الحق.

هو الملك والكلمة.

هو الطريق.

هو الأزل والأبديّة.

هو الحاضر العالِم.

هو الظاهر والباطن، هو الغيب»، قال الصالح وطلب منهم أن يعودوا إلى منازلهم وأطفالهم، وغادرهم.

لم ينفض الناس ولا تركوا مكانهم.

دخل الصالح إلى بيته وألم صدره لم يفارقه تماماً بعد، ولا ألم حنجرته، ووقف أمام النافذة ينظر إلى الناس. كانوا كمن غطس في حوض نبيذ، لا يشعرون بما حولهم وأجسادهم تتمايل من تلقائها خلفاً وأمام، يُغمضون أعينهم، يردّدون اسمه ويتفوهون بكلمات تتداخل مع بعضها، والزبد يخرج من أفواههم، والعرق ينفذ من بين شعورهم يسيل على وجوههم، يحرق أعينهم، يبلل ملابسهم والأرض من تحتهم، ويمدّون أيديهم نحو السماء ويصرخون، ثم يخفضون أصواتهم، يردّدون اسمه ويتمتمون بكلمات لا يسمعها غيرهم، وتعود أجسادهم تتمايل خلفا وأمام، والكلمات تتداخل مع بعضها والصراخ يعلو والزبد يخرج من أفواههم.

في ذلك اليوم، ذبح التياح أربعة رجال، ومن بعده بيومين ذبح أربعة آخرين، وأربعة وأربعة... ثلاثة أسابيع.

مكث الصالح أمام النافذة طوال ذلك اليوم وحتى منتصف الليل، ينظر إلى الناس يراهم يسبحون في عتمتهم، ومن حولهم الأشجار تتمايل والطيور تنقل إلى صغارها فتاتاً خبزاً وديدان. كان الصيف في أواخره، وكان هواء الليل بارداً يلفح وجوههم، والغبار من حولهم يتطاير يلتصق بأعناقهم، وكان بعض أعوان الوالي وعدد من الجند يقفون بعيداً عن الناس ينظرون، يحمون أعينهم بأكفهم لا يعرفون ماذا عليهم أن يفعلوا، وماذا كان الوالي سيطلب منهم لو أنه الآن يقف معهم، يرى ما يرون ويسمع ما يسمعون.

ثلاثة أسابيع والصالح ينظر إلى الناس من نافذة بيته، لم يخرج إليهم ولا كلّم أحداً منهم، ثلاثة أسابيع، ثلاثة أسابيع والصالح يراقب الناس، ونفسه. كان لا يأكل سوى قطعة من الخبز الجاف وبضع حبات من الزيتون الأخضر في الصباح أو عند المساء، وكان لا ينام سوى بضع دقائق كل يومين أو ثلاثة، وبدأت أحلامه تأتيه في يقظته، تُهاجمه كما نحل يُهاجم دخيلاً... يدير وجهه، يضع يديه على عينيه يُحاول يسدّ طريقها. تتكسّر. وتتكاثر شظايا الصور حوله، وعند وجهه، يشعرها تجرح جبينه وقرب عينيه، وحبّات العرق كانت تسيل تحرق جلده.

عند أواسط الأسبوع الرابع، كان التياح قد قتل من الرجال أكثر من مائة، بعضهم طاعن في السن، بعضهم لم يبلغ بعد، وهدأ الناس وأخذوا يتفرّقون.

لم يدرك الصالح سبباً لتفرّقهم، ولا التياح ولا أعوان الوالي أدركوا، هل هو الخشية من انقضاض الموت عليهم، هل هو امتناع الصالح عن الخروج إليهم، أم أنه فزعهم من أنباء وصلت عن زحف

المغول في أنحاء ليست بعيدة عن حاضرة الخلافة والمسلمين، ولعله قدوم الشتاء وبرد الليل القارص.

لم يخرج الصالح من بيته ثلاثة أسابيع أخرى، يُفكر ماذا لعله يفعل ليغسل ذنباً ما كان عليه أن يقترفه، يُراجع الأحداث ويُفكر كيف كان وأخطأ، وأنه من المُمكن أن يرتكب ذنوباً أخرى، ولعله يكون قد ارتكب في الماضي ذنوباً غيرها، لا يعرف عنها، والله يعاقبه الآن عليها، فيجعل الناس يتوهون في الظلمة من حوله، يهذون، يُنادون باسمه، ثم يجعلهم يتفرّقون... «رأيت عبدة الشياطين من قبل هكذا يفعلون، هكذا يطوفون في عتمتهم هكذا لا يشعرون بما حولهم»، قال الصالح لنفسه، «أم أنها فقط السبل تتشابه؟».

عند منتصف الليل تمدد الصالح في سريره، وجسده كان يرتعد، ينتفض كمن يُمسك البرد بداخله، وكان الهواء يضرب بالأشجار وبجدران بيته، وكان الناس في منازلهم نياماً.

«لعلي ارتكبت ذنوباً أخرى»، أكمل الصالح يتساءل، «ولكن ماذا لعلها تكون؟ أحداً لم أظلم، وأحداً لم أسلب وشتيمة لا تخرج من فمي.

ولكنّها الذنوب أنواع كثر، ليست فقط ظلماً ولا سلباً ولا شتيمة، وقد أكون فعلت ما هو أعظم.

ماذا لعلي فعلت؟

ليس حديثي مع ابن اليازجي ولا ما كان مع ابن الباز. أما المخزومي، فما حدثته بغير الحق، كما أفعل مع غيره. كنت أستطيع أن أقول له ما قلت بكلمات أخرى، أكثر ليونة وتحمل المعنى ذاته، ربما كان عليّ أن أفعل، ولو فعلت، ربما كان سيبقى بيننا ولا يغادر أهله، ربما، غير أني لا أستطيع أن أجزم بهذا، فقد يكون سفر المخزومي لأسباب أخرى، لا علاقة لها بما كان بينه وبين أهله ولا بحديثي معه... وربما في سفره صالح له أو لغيره. من يعلم. ولكن أباه قضى بعد سفره، وها هي أمه طريحة الفراش، سجينة حزن قد أكون سببه.

قد يكون هذا قضاء الله، لحكمة عنده.

فأمه، سليطة اللسان، يخشاها القريب والبعيد، وأبوه، كان من أعوان الوالي، وكان ينقل أخبار الناس كلها، وقد تسبّب في موت الكثيرين، وكان سيتسبّب في موت آخرين، فلم يكن عليه سوى أن يردّد اسماً أمام الوالي حتى يُقطع رأس صاحبه. وقد أوحى للوالي أن يرفع سعر القمح وغيره، ليجوع الناس وتكثر الزانيات، فينتشرن كما الجرذان في الطرقات وأمام المساجد، على أن يزيد من أعداد العسكر وأن يُكثف من تواجدهم في الأحياء، فلا يعترض مُعترض على حُكمه، ولا يُحاول داعية أن يُوقف تكاثر الزانيات.

قد يكون الله أراد خلاص الناس من شر أبيه، ولكن، ولكن ما ذنب أخواته، صغيرات لا يزلنَ، صغيرات ولا من قريب ولا معيل لهنّ...».

لبث الصالح في فراشه يومين كاملين يقلب مسألة المخزومي، يُحاول أن يجزم بالقول بخصوص حديثه معه، من دون فائدة تُذكر. وللحقّ، لا أعرف سبباً لتقليب الصالح هذا، فحديثه مع المخزومي لم يخرج عن المألوف من كلماته، ولا صرخ في وجهه ولا حتى رفع صوته. جلسا كما لو أنّهما صديقان، رغم أن الصالح لم يره ولا سمع باسمه من قبل. وكعادته، لم يتفوّه الصالح بما قد يسيء للمخزومي أو يجعله يشعر بالضيق، وحتى أنه لم يذكر أمه ولا أباه، ولا أي شيء يذكر بهما.

ولهذا، أغلب الظن، بل إني على يقين، أن سفر المخزومي لا علاقة له بالصالح ولا بحديثه معه، بل لأمر آخر، لا أعرفه ولا أستطيع التكهن به.

لم يتوقف الصالح عن تقليب الأمور في نفسه، انتهى من المخزومي وانتقل لأمر آخر، وآخر، وفي كل مرة يصل فيها إلى طريق مسدود، كان الظن بإثمه يتعمّق أكثر... وبدأ يتساءل عن أمور مضى عليها الزمن سنين كثيرة، وأخرى لا تبدّل ولا تغيّر في حياة أحد.

لم أر الصالح بمثل هذا الحال من قبل، ليس أنه لم يمرّ بأحوال، ولكنها كانت أحوالاً عابرة، أو، أو أنها لم تكن عابرة، لم تكن، فها هي الآن تعود مرة أخرى، أشدّ وطأة، تُحكم قبضتها عليه وتقوى. فما كان قبل سنتين، بداية لحاله اليوم، وكذلك ما كان قبل سنة، وما كان قبل خمسة أشهر وقبل شهرين. حينها، أعني قبل سنتين من الآن، كان الصالح قد أنهى حديثه مع أتباعه، وقد قصّ عليهم قصصاً عن بعض الأقدمين من الرجال الصالحين، وعن قرى أبادها الله وعن أخرى أخذت مكانها. وكان من بين أتباعه، شاب لم يبلغ العشرين من عمره بعد، يجلس ليس بعيداً عنه، شارد الذهن، ساكن الجسد، والحزن يملأ عينيه.

«أراك لست هنا»، قال له الصالح، «ولست بعيداً عنا».

«أتساءل عن الأقدمين وعن الرجال الصالحين، أتساءل عن رجل قضى وقد آمن بصلاحه وعن آخر غادر حياته وقد آمن أنه طالح، أكلاهما يدخل الجنّة، أم النار، وقد فعلا الأفعال ذاتها؟».

«من هو الأول وكيف قضى مؤمناً بصلاحه، وكيف غادر الثاني حياته وقد آمن أنه طالح؟».

«سمعت عن رجلين لا يعرف الواحد منهما الآخر»، بدأ الشاب يقول للصّالح، وقد أخذ القلق مكان السكون في جسده «عاش الأول منهما أكثر من مائة والآخر لم يتمم عقده السابع، قضيا في اليوم ذاته وفي الوقت ذاته تقريباً، بين صلاة الظهر والعصر. لا أعلم إن ماتا للسبب نفسه ولا أعلم بوجود ما يربط بين موتهما في الوقت ذاته.

عاشا وماتا وامرأة لم يقربا.

ليس أنّهما لم يتزوجا، تزوجا أكثر من مرّة، ولكنهما لم يستطيعا الاقتراب ممن تزوجا.

آمن الأول منهما، ذلك الذي بلغ من العمر أكثر من مائة، أن النساء غير أهل للثقة، وأنّهن بطبعهن الخيانة، يرتكبن الآثام وإن حاولن ألا يفعلن. والإثم يأتي بالإثم ويطغى، فتكون من الظالمين. ولا بد وأن يجد نفسه يوماً يدافع عن شرفه، وقد تملأه الظنون وتحوم حول رجل فيقتله ولا ذنب له، فيكون هو الآخر من الآثمين. فسجن زوجته في غرفة لا نوافذ لها، لا تخرج منها ولا داخل إليها، وفيها كانت تقضي كل حاجاتها، بل ولم يسمح لها أن تبرح سريرها. ولأنه كان شديد الحرص ألا ترتكب الإثم ولو في مخيلتها، لم يقربها، لئلا تأخذ متعتها وتعرفها، فتسعى خلفها مع غيره، ومات مطمئن البال... وإثماً واحداً لم يرَ في حياته. أما الثاني، فقد كان يؤمن بأن النساء طاهرات كما الملائكة، وأن الواحدة منهن لا ترتكب الإثم بنفسها، ولهذا رأى أن يبعد زوجته عن الناس أجمعين، خصوصاً الرجال، فهم عنده كما الكلاب، لا يتركون أنثى بحالها حتى لو كانت من القرود، وسجن زوجته ولم يقربها هو الآخر. ورغم أنه رأى أنه بهذا يظلم، إلا أن هذا كان عليه أهون من ارتكاب زوجته للكبائر، فلا تكون الجنّة من نصيبها».

أنهى الشاب حديثه وانتظر أن يسمع رأي الصالح، غير أن الصالح بقي صامتاً، ساكناً كما حجر، فظن الشاب أنه ينتظر سماع المزيد عن الرجلين ليفصل بالقول.

«لا أعرف الكثير عنهما»، أكمل الشاب وقد أمسك القلق تماماً بجسده، وبدأت الكلمات تجد طريقها بصعوبة بين شفتيه، «أعلم أنهما تزوّجا رابعة وخامسة وسادسة، كل ثلاث من السنين زوجة، أنثى تخرج وأخرى تدخل، وأنهما في كل مرة كانا يشددان الحراسة أكثر، وأعلم أن الثاني منهما كان يعشق كل امرأة يتزوّجها، وأنه كان ينام بجانب الواحدة منهن ولا يقترب منها، ينظر إليها طوال الليل ولا يلامسها. أما الأول، فلم يكن يقترب من زوجاته ولا حتى يراهن بعد أن يدخلن سجنهن».

لم يتفوّه الصالح ولم ينطق بكلمة.

«إلى التراب كن يخرجن»، أكمل الشاب، «ولا أحد يعلم كيف كن يقضين. قالوا هو الحرمان وقالوا هو الجوع، قالوا إنه عذاب الجسد وقالوا بل ألم الروح...

أمن يموت من حرمان المُتعة في الجسد، أمن يموت من عذاب الروح؟ أليست الحياة سفر ألمٍ وعذابٍ، أليست طريقاً مليئة بالجمر والعثرات، وما متعة الروح فيها إلا لحظات معدودات؟ ألا تذكر ما قلته لي حين قصصت عليك ما كان مع أخي بعد وفاة والدي؟

ذلك هو العذاب.

لو كان الحرمان وألم الروح، لما كنت الآن أجلس هنا، ولا أعتقد أن إنساناً كان سيبقى على وجه البسيطة.

قد يكون الجوع وقد يكون عذاب الجسد، رغم أني سمعت أن الرجلين قدّما لهن أجنى الأطعمة وأغناها، وأبداً لم يُعذبا أجسادهن ولا حتى اقتربا من أطرافهن.

لم يكن منهما غير ما قصصت عليك، والله أعلم بالحقيقة على كل حال»، قال الشاب ينظر إلى الصالح نظرة استجداء لعله يخرج من سكونه، ولو يهزّ رأسه أو يشير بيده فيُريحه.

كم تمنى الشاب في تلك اللحظة لو أنه لم يسأل الصالح ولا كلمه.

والصالح شارد الذهن كان، ولا حركة في جسده، مُنفرج الشفتين وعيناه مُتحجّرتان كما ميّت.

«لستُ على يقين من صدق القصّة»، قال الشاب يُحاول الخروج من مأزقه، «فقد سمعتها ممّن لا أثق بكلامه، وما قصصتها عليك إلا من باب السؤال عن حكمة الخالق في شؤون عباده...».

في صباح اليوم التالي، غادر الشاب واثنان معه، وقبل أن يقطعوا حدود البلدة كان التياح قد ذبح ثلاثتهم، وبعد يومين ذبح اثنين آخرين. في تلك الفترة تقريباً بدأ التياح بالقتل، وبحدود معرفتي، لم يقتل أتباعاً آخرين، والعلم عند الله.

لم يكن للشّاب أن يدرك وقع القصّة على مولاه، ولا كان له أن يحسب تأثيرها عليه وقد رآه يشفي المرضى بكلمة أو بلمسة من يده. فالمسكين، رحمة الله عليه، لم يتجاوز السابعة عشرة من عمره، ولا يعلم شيئا عن خفايا الحياة رغم شقائه، وأكثر الناس لا يعلمون.

لا أعرف أن كان من الصواب أن أحدّث عما تذكر الصالح عندما سمع قصّة الرجلين، ولا أعلم إن كان من الحكمة أن أقصّ عما كان منه عندما سمع عن موت الشاب. ربما من الأفضل ألا أفعل،

فقد يعتقد البعض أني أكذب، وقد يقول آخرون ليته لم يفعل. ولولا اضطراب الصالح وموت الشاب، ما كنت لأتحدّث عما مضى عليه الكثير من السنين، ولا حتى كنت أتذكره أو أفكر بالحديث عنه، لا الآن ولا في أي وقت آخر، خصوصاً وأن الأحداث ترتبط بأموات، وقد حاولتُ ألا أذكر ما كان لئلا أكون مُخطئاً فأسيء لأموات وأكون من الظالمين. بل وقلتُ إنهم كانوا من الصالحين، وحاولتُ إقناع التياح بذلك رغم معرفتي بما كان.

رحمة الله على أمواتنا أجمعين، رحمة الله عليهم، وسامحني الله إن كنت من الخاطئين.

سأقصّ ما كان، من دون زيادة أو نقصان ومن دون تفسير أو تأويل، لعلي بهذا لا أرتكب الإثم ولا أكون من الكاذبين.

عندما دخل الصالح بيت الشيخ، لم تكن زوجته قد بلغت الثلاثين من عمرها، وكانت حانية قد بدأت تتردّد بكثرة على بيت الشيخ، ليس رغبة برؤية التياح في ذلك الحين، بل لأنها غريبة مكان ولا تعرف أحداً من أهل الحي، وزوجة الشيخ لطيفة مضيافة، وتعرف كيف تصغي لجليسها، ومتى تُبدي رأيها ومتى تمتنع عن القول... لا سؤال ولا استفسار إلا إذا اقتضى الأمر وكان جليسها يرغب بالإفاضة والحديث. وحانية، كانت في أمسّ الحاجة لمن هو على مثال زوجة الشيخ، تستطيع أن تُحدثها وأن تقول لها من دون أن تخشى سؤالاً أو استفساراً عن شيء لا ترغب التفصيل فيه، خصوصاً بما يتعلق بالرجال، فقد كانت لا تستطيع من دون رجلين أو ثلاثة في حياتها، وكانت تختار من الرجال ما يتناسب وحاجاتها في كل فترة وفترة، غير أنها في الغالب كانت تميل لأصحاب المهن التي تحتاج لأجساد قويّة خشنه، كما الكثير من النساء المرفهات في حياتهن.

بادئ الأمر، حدّثت زوجة الشيخ وقالت لها إن أحلاماً كانت تأتيها عندما تكوّر جسدها وبلغت نضجها، وأنها ذلك الحين كانت تتذكر بعض تفاصيل أحلامها في الصباح، وأحياناً عند منتصف النهار، رغماً عنها، وأنها رغم تكرار محاولاتها لم تعرف كيف تبعدها وتصدّها عنها. وزوجة الشيخ لا تسأل عن تفاصيل ما ترى في منامها ولا كيف كانت تبعدها عنها، تُحاول أن تخفف عنها، وتقول لها إنه لا ضرر في الأمر إن كان خارج رغبتها وإرادتها. وشيئاً فشيئاً، بدأت تتحدث أمامها عن بعض تفاصيل أحلامها، وقالت إنها لم تستطع أن تمنع نفسها من نشوة كانت تأتيها عند الصباح، وإنها بعد حين وجدت نفسها تستحضر بعض الصور بعد أن كانت تصدّها، وأضافت إنها عندما كانت تستحضر أحلامها، كانت صور الرجال تأتيها من دون وجوه. لم تعرف زوجة الشيخ ماذا تقول لها، فاستغفرت ربّها بينها وبينها، وتمنّت ألا تكون حانية قد فعلت شيئاً مع الرجال في مخيلتها.

استمرّت حانية بالتردّد على زوجة الشيخ وبسرد ما كان من أحلامها، وبدأت تذكرها بجميع تفاصيلها، وتصف لها نشوة الصباح وكيف كانت تقوم عند العصر باستحضارها، وأنها مع مرور الوقت بدأت ترى وجوه الرجال. واستمرت زوجة الشيخ تستغفر ربها، وتتمنى أن يكون الأمر قد انتهى مع زواجها وإنجابها. وفي كل مرة تأتي حانية وتُحدّثها بما تُحدّثها، كانت تسأل نفسها لماذا تصغي لها، لماذا لا تغلق الباب في وجهها وهي زوجة الشيخ وله قدم في طريق. هل هي الرأفة بامرأة غريبة مكان، أم أنها الرغبة بمساعدة امرأة ضالة، وإن هي لم تصغ ولم تستمع إليها، فقد تضطر للحديث مع غيرها، وعندها سينتشر خبرها وسيصل إلى زوجها، والله أعلم بما قد يفعل

معها وما قد يكون من أمر أطفالها، وربّما يكون بمقدورها أن تُخرجها من ضلالها وأن تعيدها إلى رشدها. من يعلم. ربّما تجعلها من الصالحين.

يوماً من الأيام، أتت حانية عند الظهر على غير عادتها، وجهها بلون الزهر يميل للأحمر، منديلها يغطي نصف شعرها، وثوبها أبيض وزنار يحيط بخصرها يفصّل جسدها. جلست تتنهّد وأنفاسها معطرة كانت، كما ياسمين، أرخت رأسها إلى الوراء وأغمضت عينيها نصف إغماضة، أمالت وجهها نحو زوجة الشيخ وبدأت تحدّثها عن حلم رأته قبل يومين.

«رأيتُ الصالح في منامي»، بدأت حانية تقول، فاحمر وجه زوجة الشيخ واستأذنت منها، تستعيذ بالله وتطلب عفوه ورحمته. «لو أنه ليس الصالح، لو أنه التياح أو أي فتى آخر، ولو أنها رأت شيطاناً في منامها لكان الأمر أسهل عندي. كيف أتاها الصالح، كيف أتاها، أمن المُمكن أن تكون عندها رغبة بجسده، هل رأت منه ما يجعلها تراه، أم أنه أتاها رغماً عنه وعنها؟

لا، لا أعتقد، لا أعتقد أنها رأت منه ما يجعله يأتي في منامها، فمن بمثل طهارة نفسه لا يخرج منه السوء، لا يخرج، ولا يكون منه سوى الصلاح، وهو خجول ولا يقوى على رفع بصره، وإن فعل، يصبح وجهه بلون الفجل وأحمر.

قد تكون خيالاتها، ربّما هيئ لها، ربّما رأت ما لم يكن منه ولم يفعله، أم تراه فعل؟

لا أظنّ، لا أظنّه فعل.

ولكنّه بشر والنفس أمّارة بالسوء، فلما لا يفعل؟ يوسف عليه الصلاة والسلام، عندما همّت به زوجة العزيز همّ بها، ولولا أن رأى برهان ربه، لكان من الخاطئين. وعندما رأى منهنّ ما رأى، طلب من ربّه أن يصرف عنه كيدهنّ، لئلا يصبو إليهن ويكون من الجاهلين. وإن يوسف عليه السلام لم يمنع نفسه، فكيف الصالح يفعل، فلا أظنه أتقى من يوسف ولا من غيره من عباد الله الصالحين».

لبثت زوجة الشيخ تصارع أفكارها أيّاماً وأسابيع، تارة تجزم أن الصالح لا يفعل ما قد يُغضب ربّه، وأخرى تقول إن به نقصاً مثل سائر البشر. وحانية تأتيها تحدّثها، تفصّل أمامها أفعال الصالح معها في منامها، وكيف عند منتصف النهار تستحضره ثانية، فيكون معها كرغبتها. وعندما في أحد الأيّام قالت لها زوجة الشيخ إنّها بهذا تضل طريقها وإنّها تخشى عليها من غضب خالقها، وأجابتها حانية بأن الله خالق الأرض والسماء، يعرف ضعف عباده ويعلم ما في الصدور وأخفى، وأنّها هي الأخرى، وإن كانت زوجة الشيخ، فهي سجينة ضعفها، وإن هي أصغت لحاجاتها وتعاملت بصدق مع نفسها، ستدرك لماذا بعد أن كانت ترتبك ويحمرّ وجهها بدأت تنتظر سماع المزيد من تفاصيل أحلامها... عندها ثار غضبها أكثر مما ثارت عندما التياح قال لها بعد سنتين من ذلك الحين إنه لا يعرف إن كان في الحياة صدق أو حقيقة، وكادت تطردها من بيتها، وقالت لها إنّها أصغت إليها لئلا تلجأ إلى غيرها فيفضح أمرها ويتشرّد أطفالها، وإنّها ما كانت لتفعل لولا أنّها ظنت أنه بإمكانها تقديم المساعدة لها وإخراجها من ضلالها... غير أنّها، حينما هدأت، قالت لها «ربما الصدق معك، ورغم أني أخاف الله واليوم الآخر، وأعرف الحق من الباطل، فما أنا سوى بشر ضعيف، والله يعلم، ولا أظنّه يُحاسب البشر على ضعف بجبلتهم مثل هذا. فما كفرت ويوماً لم أعص أمره، ولا أفعل أكثر من سماع ما تقصّين عن الصور في أحلامك، ويعلم الله أني أقاوم استحضارها بكل عزمي، وعندما تهاجمني، لا أر منها إلا القليل القليل، ورغماً عنّي».

«لماذا تقاومين الصور»، أجابت حانية، «فلا ضرر منها ولا معصية، والواحدة منا ليس لها سوى مخيلتها، فزوجي لا يقترب مني أكثر من مرتين كل شهرين أو ثلاثة، وعندما يحدث، يكون كما ثور جائع، أو كمن في مهمّة عليه أن ينهيها بأسرع ما بإمكانه، فلا أعي شيئاً مما يفعل، وحتى أنه لا يخلع ثيابه، ولا أنا أخلع ثيابي، يأتيني من الخلف، يكشف عن مؤخرتي، ويدفع بعضوه... وينقلب على ظهره كما قتيل.

لا أعتقد أن الشيخ يختلف عن زوجي، فالرجال لا يدركون من المتعة سوى لحظة القذف ولو من دون انتصاب، والواحد منهم يظنّ أنه كلما كان أكثر خشونة مع زوجته كان أكثر رجولة، وأنه لا بأس إن كان متّسخ الجسد، ولا ضرر إن كانت رائحته كرائحة الماعز، فهو رجل وله عضو وينتصب.

لا يعرفون أن للكلاب أعضاء تنتصب، ويستعملونها تماماً مثلهم».

«تعلمين أن الشيخ شديد الإيمان بربه، وحاجات الجسد لا يلتفت إليها ولا تعنيه. وأنا، أنا لا أستطيع من دونه، ولا أستطيع سوى السير على دربه».

«ولكنه الله لم يأمر بهذا»، قالت حانية، «لا قال أن نبتعد عن أجسادنا ولا عن متعة الروح».

«لم يقربني الشيخ سوى مرّتين حتى يومنا هذا، ومنذ زواجنا وهو يقضي أيّامه يُصلي ويتعبّد، وأحياناً يُجالس مُؤمناً بمثل إيمانه، ومنذ أتى الصالح لم يخرج من غرفته إلا لقضاء حاجته».

«لا بد وأنه كان يقضي حاجته فوقك»، قالت حانية مازحة، إلا أن زوجة الشيخ لم تجد الأمر مضحكاً، فقد كان الشيخ، في الواقع، يفعل. ليس تماماً يبول فوقها، ولكنه كان يبول في وعاء ويتركه في مكان تعرفه، تستعمله لتغسل وجهها به عندما تهتاج من شدّة حاجتها لجسده، فتهدأ.

«تعلمين أن البعض يفعل»، قالت زوجة الشيخ مبتسمة لتبعد الشبهة عنها، «يقال إنه يقتل الشهوة، بعد أن يكسر عنفوان المرأة، ويقال إنه أكثر فاعلية من الصوم لمثل هذا الأمر».

«وأنت، تصومين؟ أم أن الشيخ يبول فوقك؟».

طأطأت زوجة الشيخ رأسها، «لا هذا ولا ذاك»، قالت وقد احتقن وجهها وتسارعت خفقات قلبها، «لا أصوم ولا يبول الشيخ فوق رأسي، فهو لا يريد كسر عنفواني كما قال، بل يبول في وعاء من نحاس، كان الشيخ قد اشتراه من رجل قال إن الوعاء إرث عن جدّه، أغسل به وجهي حين تشتد حاجتي وشهوتي، فأهدأ. أحياناً، أحتاج لغسله ثلاث مرّات يومياً، وأحياناً أضطر لغسل جسدي كله. ليس من طريقة واحدة».

«والشيخ، من يبول فوقه؟».

«لا تهزئي بأتقياء الله، ليس كمثل الشيخ رجل في الأرض».

«لم أقصد سوى الدعابة، وما أردتُ سوى التخفيف عن روحك، إذ تعلمين كم عزيزة أنت على نفسي، ولا أستطيع رؤيتك بهذا الحال ولا أفعل شيئاً».

«لم يأمر الله بهذا»، تمتمت زوجة الشيخ تُردّد قول حانية، «لا قال أن نبتعد عن أجسادنا ولا عن متعة الروح عندنا».

«وما أنزل الله بكتابه لنشقى».

«كم هو جميل لون جسده»، بعد يومين كانت حانية تجلس بجانب زوجة الشيخ، تقصّ عليها حلمها مع الصالح، وزوجة الشيخ، مشدوهة أمام وصف حانية للصّالح ولما فعله معها في حلمها، «كان ينظر إلي ونور ينتشر من حوله، يتحرّك كما أشعة الشمس تُلاطف أمواج بحر هادئة»، أكملت حانية وبريق يشعّ من عينيها، وزوجة الشيخ، مأسورة كما لو أنها ترى الصالح يُلاطف حانية أمامها. وأنهت حانية حديثها وغادرت، وزوجة الشيخ ساكنة ولا صوت ولا حركة.

تجلس أمام غرفة الشيخ، تنتظر مرور الصالح من أمامها لقضاء حاجته، وجدت زوجة الشيخ نفسها بعد أن حدّثتها حانية عن حركة الصالح في حلمها، تنظر إليه خلسة تتخيّل حانية تحته، وهو فوقها يُلاطفها كما أشعة الشمس وأمواج بحر هادئة. بداية الأمر، لم ينظر الصالح إليها وحتى أنه لم ينتبه لوجودها.

وكان يوما من الأيّام، وانتبه الصالح إلى وجودها، وإلى جلوسها، ورأى ابتسامتها ورأى بريق عينيها، ورأى لون وجهها وخط شعرها.

فبدأ الصالح لا يخرج من الغرفة إلا عندما كانت تلح عليه الحاجة، وعندما كان يخرج، كان يرفع بصره، يمنع نفسه من النظر إليها، وبين المرّة والأخرى، كانت عيناه تلتقي بعينيها، فيحمر وجهه، وترتبك خطواته...

الجزء الأخير

1

«حتّى متى الظلمة، ومثل هذا السير؟».

«حتّى بُزوغ الفجر ورُؤية الخضرة، أو لون الشجر».

«والخُضرة، متى تكون؟».

«حين مشيئة السماء والقدر».

«وبُزوغ الفجر؟».

«ربّما حين انتهاء الليل».

«وانتهاء الليل، متى يكون؟».

«يُقال مع دخول الشمس، يُقال عند غياب القمر».

«والشمس والقمر، ألا يدوران كما الأرض يسيران؟».

«هناك العديد من القصص، بعضها تتحدّث عن الدورات وبعضها عن نور الشمس العظيم».

«يُقال إنّها الشمس ضوء يدور، ألا يكون فجر حيث تدور».

«قد يكون، وقد لا يكون».

«والسير في الظلمة؟».

«لا سير فيها لا مسير».

استيقظ الصالح وسريره يهتز تحته، جسده يرتعد من شدّة الخوف ويرتجف، جلس في سريره والذعر يمسك بصدره، ضغط عليه قدر استطاعته... حتى ارتخت أعضاؤه وأصابعه بدأت ترتعش، أسند رأسه يستحضر منامه، يقلب ما سمعه، يُحاول يفهم مقاصده، يتساءل لماذا يأتيه مثل هذا الصوت، وإن كان له علاقة بذنوبه، وإن كان لذنب اقترفه في طريقه أم لشيء يفعله من حوله.

والتياح كان يجلس أمام بيته، ينتظر خروجه، يفكر يتساءل ماذا عليه أن يفعل... وهل كان عليه أن يقتل الشاب في ذلك الحين، وهو من أتباع الصالح، أم كان عليه أن يدعه وشأنه.

2

بعد ثلاثة أسابع، وقد كان الصالح قد انتهى من أمر المخزومي ومن غيره، وكان قد بدأ يهدأ، أتاه صوت آخر.

ليس في منامه.

«في الزمن السالف، السابق للعصر الأوّل، تراءى المعنى للخالق

بعيداً عن فضاء الكون المُبعثر، وقف المعنى يَجمع أشلاءه وذاته.

دخل، بعد أن حرّر بعضاً من أعضائه الخائفة، لتُبحر على سجيّتها إلى حيث الطمأنينة والأزل

أعضاء المعنى الخائفة أبحرت

أعضاؤه الفزعة سافرت.

ظلال العبث اقتربت

تكاثرت

تكاثفت

تكاتفت لتحفظ لنفسها امتدادها.

ارتعش المعنى

تراجع

وإلى حيث أبحرت أعضاؤه الخائفة... أبحر».

«أيْن سـيْرك»، سـألْته إحْداهن، زانية في الأرْبعين من عمْرها، مُمْتلئة الجسـد والنهْديـن كانتْ، نحيفة الوجْه وشـفتاها بلوْن الرّمان حمراوان، شـعْرها منْثور أسْود، ترْتدي ثوْباً قـروي الألْوان والرّائحة، أصابعها دقيقة موْشومة بأزْرق، كما بيْـن عيْنيها وتحْت شفتيْهـا. نقْطة داكنة الزّرْقة فوْق جبينها وثلاث تحْت امْتلاء شفتيْها.

«لم أبْدأ سيْري بعْد»، قال ينْظر إليْها يتحقّق منْها.

«ولكنّكَ تسير»، قالت تبْتسم.

«ربّما، ولكنّها الطّريق لا أراها. ليْس بعد».

«أرى طريقكَ خلْفكَ تُلاحقكَ».

«أعْلم، ولكنّها للآن لمْ تصل»، قال يتملْمل في جلْسته يُحاول يُخْفي ضيقه.

أمْسكتْ يده تنْظر أمامه معه.

«سيطول سيْـركَ»، قالتْ تهْمس وقد اقْتربتْ بوجْههـا حتى كادت تلامس وجْهه، وسبْعاً من السّنين ستكون أمامكَ وأخْريات مثْلها خلْفكَ...

لا تدع الأرْض تتوقّف ترْتجف تحْتكَ.

لا تدعها تتوقّف ترْتعد أمامكَ.

والشّمْس والقمر».

جمال ضاهر، فلسطين. بير زيت.

- رئيس قسم الفلسفة والدراسات الثقافية ومدير برنامج ماجستير دراسات عربية.

- باحث في مجال المنطق وعرب ما قبل الدعوة الإسلامية.

صدر له:

- **عند حضور المكان، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2000.**
- **وأضحى الليل أقصر، دار الآداب، 2005.**
- **مفاهيم في المنطق: أسس وقواعد، دار الشروق، 2010.**
- **قواعد في المنطق: أسس ومفاهيم، دار الشروق، 2012.**


ISBN 978-9953-71-934-4

9 789953 719344